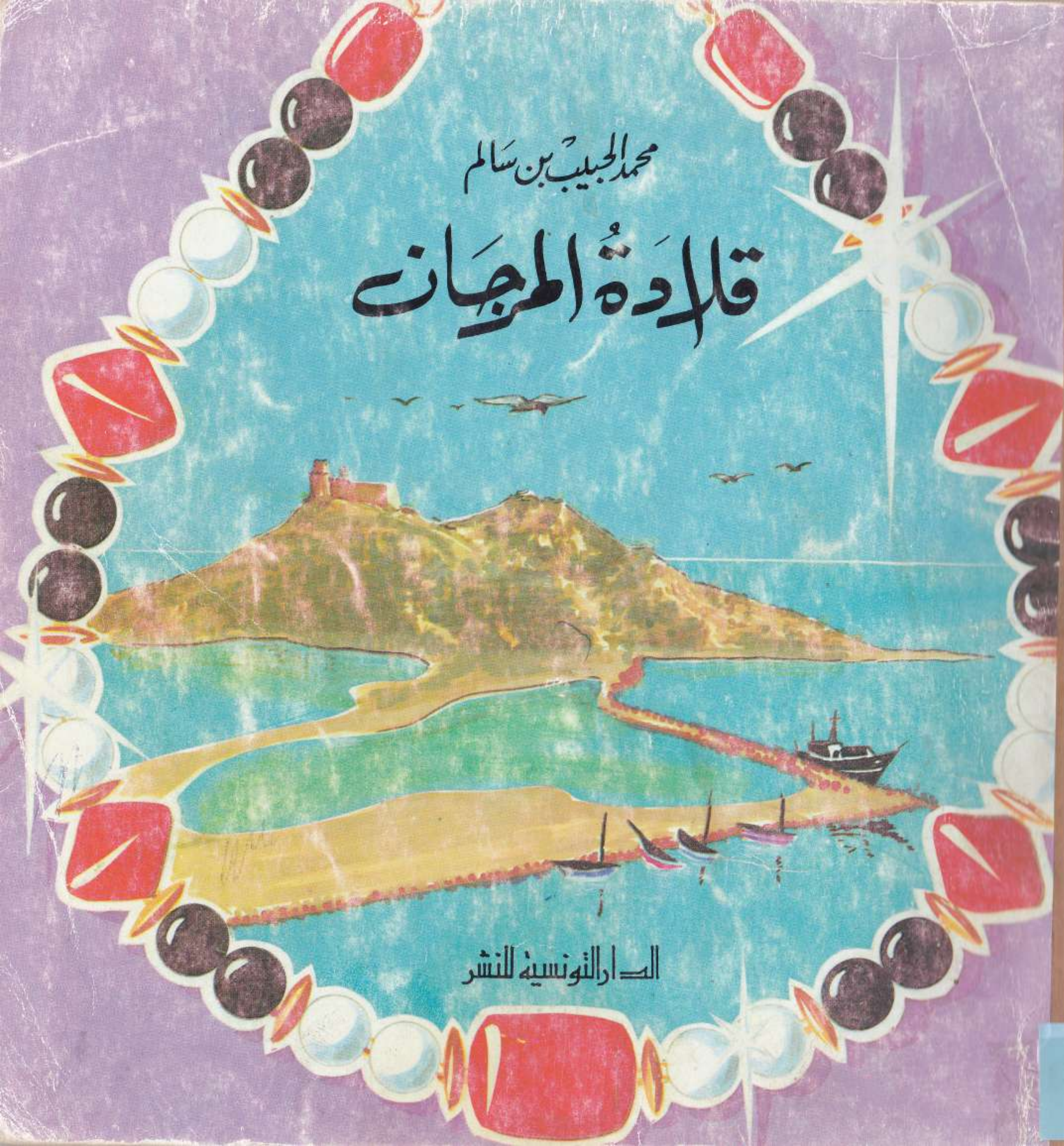
محمد الحبيب بن سالم

قلادة المرجان



الدار التونسية للنشر

محمد الحبيب بن سالم

قلادة المرجان

الطبعة الثانية

الدار التونسية للنشر

ISBN 9973 - 12 - 200 - 3

الجنّات المحروسة

جُزُرٌ خَضراءُ ... في رِمالٍ صَفْراءَ ... فِيها ظِلالٌ وَارِفَةٌ ، ومياهٌ جارِيَةٌ ، وأشجار يانِعَةٌ ، تُحِيلُ قَسْوَةَ الصّحراءِ إِلَى لِين وشَقَاءَها إِلى نَعيمٍ ... تلك هي الوَاحَاتُ ، في الجنوبِ ...

في الواحاتِ ... ترى عَمَالِقَةَ النَّخِيلِ ، تُحيطِ بالبساتين ، أو تَحْتَلُّ وسَطَها ، صُفوفا مُستَقيمةً ، مُتَنَاسِقَةً ، وقد تحزَّمَتْ بالدَّوَالِي ، والكُرُوم... في أَوْساطِها ... وتَراصَفَتْ أشجارُ الرُّمانِ ، حَوْلَ جُذُوعِها ... فَتَخْتَلِطُ الثِّمارُ ، مثلما اشْتَبَكَتِ الأشجارُ ... فترى أبْدَعَ مَنظَرٍ ، وأرْوَعَ جَمَالٍ ... عراجينُ التَّمرِ ، تَحْنُو على عناقيدِ العِنَبِ ... المُتَدَلّيَةِ فوق الرُّمَّانِ ، والسَّفَرْجَلِ والتُّفَّاحِ ... وما شِئْتَ من ثِمارِ ، أَرْوَتْهَا المياهُ ، وأَنْضَجَتْهَا حرارةُ الشَّمسِ !

يَمْتَدُّ تَحْتَ الجميعِ ، بساطٌ من الحشائشِ ، وأصْنافِ البُقولِ . يُغْرِيك بالجلوس وَيَدْعُوك لِلْمُكُوثِ ... فإذَا اسْتَجَبْتَ لِلإغْرَاءِ شَنَّفَ سَمْعَك خريرُ الماءِ ، المُنْسَابِ في السَّواقِي. وأطْرَبَتْكَ زَقْزَقةُ العَصافيرِ، المُتَوَاثِبَةِ بينَ الأغصانِ ، الباحِثةِ عن رِزْقِها بين الثِّمارِ النَّاضِجَةِ والحَشَراتِ الطّائرةِ .

هَكذا هي البساتينُ ... في الواحاتِ ... إنّها بَهْجَةٌ للأعيُنِ ، وَمَطْمَحٌ لِلأنفُسِ وَعُرْضَةٌ لِلأيْدِي ... لذلك تُحْرَسُ البَسَاتِينُ ، بآستِمْرَارٍ ، خَوْفًا من عَبَثِ الصِّغَارِ ، وَفُضُولِ الكِبَارِ ... ومن هَؤُلاَءِ الحُرَّاسِ (العمُّ بُوجُمْعَةَ) .

الحارِسُ المَرِيضُ

العمُّ بوجمعة حارسٌ أمينٌ . يُقَدِّرُهُ الكبارُ ، وَيَرْهَبُهُ الصّغارُ ، وكنتُ أنا أيْضًا أخشاه رغم أنّي لستُ صغيرًا . إذ أني في عُنْفُوَانِ الشّبابِ ... ورغم أنّي كنتُ أراه يَوْمِيًّا . فهو يَحْرُسُ بُسْتَانًا يُحَاذِينَا .

صَوْتٌ مُرْعِبٌ ، مُخِيفٌ . وعصا غليظةٌ ، كبيرةٌ . واجْتِنَابٌ لِلنَّاسِ ، وابْتِعَادٌ عن مُحَادَثَتِهِمْ كلُّ ذلك فَرَضَ على أجْوارِهِ احترامَه ، وأجْبَرَ العَابِثِينَ على الابتعادِ عنه .

كان في العّم بوجمعة شيءٌ ، يدعو للدَّهْشَةِ ، وَيُثِيرُ الاسْتِغْرَابَ وذلك هو ارْتِعَاشُ يديه . وكثيرا ما اسْتَرَقْتُ النَّظَرَ إلى يَدَيْهِ فَأَعْجَبُ لأمرِه وأسْأَلُ نَفْسِي :

ــ لماذا تَرْتَعِشُ يَدَاهُ ، يا ترى ؟

وسألتُ أبْنَاءَ صاحِبِ الحَقْلِ ، الَّذي يَحْرُسُه العمُّ بوجُمْعَةَ فكانوا أجْهَلَ منّي ... إذْ لا أحَدَ يَتَجَاسَرُ على العمِّ بوجمعة وَيسْأَلُهُ . وهَكذا ظَلَّ سؤالي بِدُونِ جوابٍ .

ومرَّتِ الأَيَّامُ ...

أُصِيبَ العَمُّ بُوجُمْعَةَ بِالحُمَّى ، فَلزِمَ الفراشَ مُكْرَهًا . وتولّى الحِراسةَ ، بدَلاً عنه ، ابْنُ صاحبِ البستانِ ، وكان صديقا لي . فَدَعاني ، ذاتَ يومٍ ، للدّخولِ معه ، فدخلتُ . وشجَّعَنِي على محادَثة العمِّ بوجمعةَ ، ففعلتُ . فإذَا هو لطيفٌ ، بَشوشٌ . فقلتُ في نفسي :

ــ يا لله ... كَمْ تَخْدَعُ المَظَاهِرُ !!

صِرْتُ أعودُ العمَّ بوجمعةَ ، بِدونِ انقطاعٍ . فأُعِينُه ، وأُساعِدُه ، وأمُدُّه بما يحْتاجُ إليه . فتعلق بي . وصار يترَقَّبُ قُدومِي ، ويُعاتِبُنِي على غيابي ، أو تَأَخُّري ...

وذاتَ يومٍ ...

طَلب منّي العمّ بوجمعةَ شَرْبَةَ ماءٍ ... فذهبت بِالمَشْرَب إلى العينِ الموجودةِ بالبُستَانِ نَفْسِهِ . ومَلأته من مائها العَذْب ، النَّمِيرِ ... وعندما قَدَّمْتُه إليه اسْتَنَدَ لجدار الكُوخِ وأمسك (المَشْرَبَ) بين يديه ، وأدْنَاهُ من فَمِهِ . فاشتدَّ ارتعاشُ يدَيهِ ، وانْسكَبَ الماءُ على لِحيَتِهِ ، وثيابِه ، فاغتنمتُ الفُرْصةَ لأَقولَ له ، وأنا أمْسَحُ ثيابَه ، وغِطَاءَهُ .

ــ لِماذَا تَرتعِشُ يداك ، يا عمِّ بوجُمعةَ ؟

تَنَهَّدَ العَمُّ بوجمعةَ ... ثم قال :

ــ البحرُ يا بنيّ ... البحرُ هو السّببُ .

قلتُ مُسْتَغْرِبًا :

البحرُ !!؟ كُنتُ أظنّك من أقصَى الجنوبِ ، حيث لا بَحْرَ هناكَ ... ثم إنّي أعرفك هنا ، منْذُ أمدٍ طويل ، ولم أركَ ذَهبتَ لِلْبحرِ ، رغم قُرْبِهِ منَّا ، فكَيف فَعل بكَ البحْرُ هذا !؟

قال العمُّ بُوجمعةَ ، وهو يَزْفُرُ :

ــ إنّكَ تُذكِّرُني بمُصِيبَتي ، وذلك ما يَزيدُنِي حُزْنًا على حزنٍ : لِعَجْزي عن مُداواةِ نفسي ، وتحقيق أمَلِي ... فدعني ، يا بُنَيَّ ، من البحرِ ، ولا تَذْكُرْهُ أمَامي ، فإنَّ الحديث عنه يُؤْلِمُني ..

قلتُ بلَهْفَةٍ ورجَاءٍ :

ـــ باللهِ عليك ... حدِّثني عنه . ونَبِّئْنِي بما صنعَ بك . فإنّ في الحديثِ عن البَحْرِ ، سِحْرًا وَرَوْعَةً .

قال العمُّ بوجمعةَ بِجِدٍّ :

ـــ البَحْرُ ـــ يا بُنَيَّ ـــ جبَّارٌ عنِيدٌ ، إنْ غضِبَ ، وَثَارَ . وَلَطيفٌ ، كَرِيمٌ إن سكنَ ولانَ !! البَحْرُ مُغْرٍ ، جذّابٌ ولكنّه غرورٌ ، فَتَّاكٌ ، قَاتِلٌ ! فابْتَعِدْ عنهُ ، واحْذَرْهُ . قلتُ : ولكِنّي مُغْرَمٌ به ... يَسْبِينِي الحَدِيثُ عنه ، فَتحَدّثْ ولا حَرَجَ عليك .

سكت العمُّ بوجمعةَ طويلا ... فتعلّقَتْ عَيْنَايَ بِشَفَتَيْهِ أَثْنَاءَ سُكُوتِهِ ، أَتَرَقَّبُ كلامَه بِشَوْقٍ شَدِيدٍ . وأخيرًا قال :

ـــ أنا مثلُك ، أحبُّ البحْر ، رَغْم ما فعلَه بي ! وقد عاشَرْتُه طويلا . وَرَبِحْتُ منه كثيرا . ولكنَّ نِهَايَةَ أمْرِي معه ، كانت قاسيةً ... كانت ما تَراهُ من ارتعاشٍ في يديَّ . وذلك ما أخرجَنِي من بَلَدِي ، في أقْصَى الشَّمالِ . وجعلني أتَنَقَّلُ ، بَحْثًا عن الأطبّاءِ والأدْويةِ .

قُلتُ : أيفْعَلُ البَحْرُ كلّ هذا بالغوَّاصِينَ ؟

قالَ : نَعَمْ ... ومِمّا حلَّ بي يُعْتَبَرُ أهْوَنُ مَا يُصابُ بِهِ الغوَّاصُونَ القُدَامَى .

قلتُ : إذن ... فَالغَوَّاصُ الحَدِيثُ بِمَأْمَنٍ منَ الخَطَرِ ؟

قال : لَيْسَ دائِمًا ... فَأَخْطَارُ الغَوْصِ لاَ تَنْتَهِي ... ولا تُتَوَقَّعُ ... ولكنّ الّذِينَ يغُوصُونَ بِكِسْوَةِ الغَوْصِ آمِنُونَ مِن آنْفِجَارِ الأُذْنِ والأَنْفِ نَتيجَةً لِضَغْطِ المَاءِ ، وَغَيْرَ مُعَرَّضِين لِضِعْفِ الجِسْمِ ، وتَسَاقُطِ الأسْنانِ ، والسُّعَالِ المُزْمِنِ ، تِلكَ الأمْرَاضِ الّتِي كانَتْ تُلازِمُ أسْلاَفَهُمْ من الغوَّاصِينَ .

قلتُ : ولكِنِّي لم أرك تذْهبُ للأطِبَّاءِ !!

قال : الطَّبِيبُ الَّذِي عِنْدَهُ دَوَائِي ، غيْرُ بَعِيدٍ عَنْ هذا المَكَانِ . ولَكِنَّه غائِبٌ ، عن بَلَدِهِ ، مُنْذُ مُدَّةٍ . وأنا أَنْتَظِرُ قُدُومَهُ .

سَكَتَ العَمُّ بُوجُمْعَةَ . فآحْتَرَمْتُ سُكُوتَهُ . ولم أَنْبِسْ بِحَرْفٍ . حَتَّى آسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ ، مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، بعْد سُكُوتٍ قَصيرٍ ، خِلْتُهُ دَهْرًا طويلا ... قالَ :

— أنتَ تظنُّني من أقْصَى الجنوبِ . وأنا من أقْصى الشَّمالِ . أنا من (طَبَرْقَة) ... وَبَحْرُهَا غَنِيٌّ بالسَّمَكِ ، والمَرْجَانِ . وكان أبي وأجْدَادِي يَغُوصُون لصَيْدِ المَرْجَانِ فَتَعَلَّمْتُ الحِرْفَةَ صَغِيرًا . وأَتْقَنْتُهَا ، حتَّى صِرْتُ أمْهَرَ من يَغُوصُ في بَلْدَتِنَا .

قُلْتُ : المَرْجَانُ الَّذي تَضَعُه أمّي ، في قِلادَتِها ، تصطادونه من البحْرِ !!؟

قالَ : نعَم . وما الغرابَةُ فِي ذلِك ؟

قلتُ : كُنْتُ أظنُّه حجَرًا كرِيمًا ، يوجَدُ في البرِّ ، لا في البَحْرِ .

قالَ : لا ، يا بُنَيَّ ... إنَّه يَخْرُجُ من البحرِ . وقد قَضَيْتُ جلَّ عُمُرِي ، أَغُوصُ إِلَيْهِ وَأُخرِجُه وسأحدِّثُكَ عنه ، غدًا ، حدِيثَ خَبِيرٍ ، مُجَرِّبٍ ...

المَخْلوقُ العَجِيبُ

تركتُ العمَّ بوجمعةَ ، بعدَ أنْ أحضرتُ له كلَّ ما يَحْتاجُه ، ودخلتُ حَقْلَنَا ، فبدأتُ أحُشُّ الفَصَّةَ لِحمَارِي ، والمَعْزَاتِ الَّتِي نُرَبِّيهَا ، في مَنْزِلِنا . ولم أكن مُهْتَمًّا بِعمَلي ، إذ كان كلامُ العمِّ بُوجمعةَ عن المَرْجَانِ ، لم يَبْرَحْ فكْري .

فكَّرْتُ ، في تلك اللَّيلةِ ، أن أذهَبَ لِلعمِّ بُوجمْعَةَ ، لِيقُصَّ عليَّ بَقيَّة الحدِيثِ . وَلَكِنِّي تَحَكَّمْتُ في نَفْسِي . وبَقِيتُ فِي البَلْدَةِ . غَيْرَ أنِّي لم أَسْتَطِعْ أنْ أَحْبِسَ لِساني ، فأَخْبَرْتُ أصْدِقَائِي من الشُبَّانِ ، بما قالَهُ العمُّ بُوجمَعَةَ . فٱخْتَلَفُوا بَيْنَ مُصَدِّقٍ ، ومُكذِّبٍ ، وَمُسْتَغْرِبٍ وَمُتَشَكِّك ...

بَعْدَ صَلاة العَصْرِ من اليَوْمِ المُوالِي . كنتُ مَعَ العمِّ بُوجمْعَةَ ، في كُوخهِ . وبعْدَ أنْ سَأَلْتُهُ عن حَالِهِ ، قلتُ لهُ :

ــ قُلْتَ لِي : مَسَاءَ أمسِ ، إنَّك سَتُحَدِّثني عنِ المَرْجَانِ وإنَّكَ خَبير بِهِ ...

فقالَ لي : أنا لَمْ أنْسَ ما قُلْتُ لك . فلقَدْ غُصْتُ آلاَفَ المَرَّاتِ وأخرجت الكَثِير من المَرْجَانِ فأنَا وَاثِقٌ مِمَّا أقُولُ .

فَسَألْتُه : كَمْ مِتْرًا تَغُوصُ ؟ وهَلْ تَبْقي غَائِصًا أمَدًا طَوِيلاً ؟

قال : لاَ أبْقَى طَوِيلاً . وَلاَ أهْبِطُ بَعِيدًا .

قُلْتُ : فَالمَرْجَانُ قَرِيبٌ من سَطْحِ المَاءِ إذَنْ ؟

قال : يَكُونُ قَرِيبًا ، كما يكونُ بَعِيدًا ... على حَسَبِ بُعْدِ الصُّخُورِ ، الَّتِي يَنْبتُ فَوْقَهَا .

اِسْتَغْرَبْتُ قَوْلَ العمِّ بُوجمعةَ . فَسَألْتُه :

ــ المَرْجَانُ يَنْبُتُ !!؟ هَلِ المَرْجَانُ نَبَاتٌ !؟ فَضَحِكَ مِن شِدَّةِ تَعَجُّبي . وقال لي مُؤَكِّدًا بلَهْجَةِ الوَاثِقِ مِمَّا يَقُولُ :

ــ إنَّهُ يَنْبُتُ في الصَّخْرِ ، كما تَنْبُتُ الشَّجَرَةُ في التُّرابِ ... وهووإنْ كَانَ على شَكْلِ الأشْجَارِ فلَيْسَ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ لَيْسَ نَبَاتًا أصْلاً ... وإنَّمَا هُوَ حَيَوَانٌ ...

اِزْدَدْتُ حَيْرَةً ، واسْتِغْرَابًا . وقلتُ :

ــ إِذَا كَانَ المَرْجَانُ حَيَوانًا ــ كَمَا تقولُ ــ فَلِمَاذَا لاَ يُغَادِرُ مَكَانَهُ ؟ وَكَيْفَ يَعِيشُ ؟ وَكَيْفَ يَتَغَذَّى ؟ وَبِمَاذَا ؟

قَالَ العمُّ بوجمعةَ ، وَهْوَ يُشِير بِيَدِهِ ، لأَسْكُتَ :

ــ عَلَى مَهْلِك ... فَسَأَشْفِي غَلِيلَكَ ، وَأُجِيبُك عَنْ جَمِيعِ أَسْئِلَتِك . وستَعْرِفُ الكَثِيرَ عَنْهُ .

قلتُ : أنا واثِقٌ بِذَلِكَ . وشَاكِرٌ لكَ فَضْلَكَ . وَأَرْجُو أنْ تُعْلَمَنِي قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عن حَقِيقَةِ المَرْجَانِ ... كَيْفَ يكونُ حَيَوانًا بَيْنَمَا هُوَ في مَرْآى العَيْنِ نَبَاتٌ ؟

فَقال العَمُّ بُوجمعةَ :

ــ المَرْجَانُ حَيَوانٌ . مَا في ذَلِكَ شَكٌّ . ولَكِنَّهُ على شَكْلِ النَّبَاتِ .

قلتُ : فَهْوَ ــ إذَنْ ــ حَيَوانٌ نَبَاتِيٌّ ؟

ضَحِكَ العمُّ بُوجمعة.. وقال :

ــ هُو فِعْلاً حَيَوانٌ نَبَاتِيٌّ ، ولكِنَّهُ جَمَادِي أيْضًا ... ذلِك أنّه يَجْمَعُ بيْنَ شَكْلِ الأشْجَارِ وصلاَبةِ الأحْجَارِ . وَحياةِ الحَيَوانِ .

قُلْتُ : إنَّك قد زِدت الأمر غُمُوضًا .

قال : سَأُوَضِّحُ لك الأمرَ ، حتَّى لاَ يَبْقَى فيهِ أيُّ غُمُوضٍ أو خَفَاءٍ .

قُلْتُ : أنا في أشدِّ اللَّهْفَةِ لِسَمَاعِ ما تَقولُ .

قال العمُّ بُوجمعةَ : يَتَكَوَّنُ المَرْجَانُ على هَيْئَة أشْجَار بِجُذوعِهَا ، وفُرُوعِهَا ، وأغصَانِها ولكن بدونِ أوراقٍ . وفي هذا يَتشابه المَرْجَانُ والنَّباتُ .

قلت : وفي أيِّ شيءٍ يشبه الجَمَادَ ؟

فأجَابني مُتسائِلاً :

ــ هَلْ لَمَسْتَ المَرْجَانَ ؟

قلتُ لهُ : نعم .

فقال : كيف وَجَدْتَه ؟

قلت : هُو صُلْبٌ ، قَاسٍ كالحجَارَةِ .

فَقَاطَعَنِي : بَلْ هُوَ أقْسَى . وذلك هُوَ الجُزْءُ الَّذِي يُعْتَبَرُ من الجَمَادِ . لأنَّه مُكَوَّنٌ من الكِلْسِ ، مثلَ أغلبِ الحَجَرِ؛ ذلك،أنَّ الحَيوانَ المَرْجَانِيَّ يَمْتَصُّ الجِيرَ منَ الماءِ وَيُكَوِّنُ مِنْهُ جِدَارًا ثمَّ يَمُوتُ الحَيَوانُ الحَيُّ وَتَبْقَى البُيُوتُ الَّتي شَيَّدَهَا .



قلتُ : بَقِيَ أن تُعَرِّفَنِي بالجزءِ الحيوانيِّ مِنْهُ ، أين يكون ؟

قال ضاحكا : إنَّه في الشجرةِ .

قلت : تَعْنِي أنَّه مُلْتَصِقٌ بها ؟

قال : كلاَّ ... ونَعَمْ ...

قلتُ : كيف ؟ ...

قال : إنَّه في وَسطِها ... وفوقها .

قلت : كأنَّك تريد أن لا أفْهَمَ !!

قال : تِلك هي الحقيقَةُ .

قلت : إعذِرْنِي . فإنِّي لم أفْهَمْ . ولم أقْتَنِعْ ، وَبِودِّي أن تُوَضِّحَ لي أكْثَرَ .

قال العمُّ بُوجمعةَ ، وهو يُشِيرُ لِلشَّمسِ :

ـــ الشَّمسُ سَتَغيب ، وأنت لم تَحُشَّ الفَصَّةَ . فآذهبِ الآن ،وأحْضِرْ عَشَاءَ حِمَارِكَ وَسَأُوَضِّحُ لكَ غدًا ، ما لَمْ تَفْهَمْهُ اليومَ .

وَدَّعْتُ العَمّ بُوجمعة ، مُكْرَهًا ، وَبِودِّي أن لا أُفَارِقَهُ .

وفي صباحِ اليومِ المُوَالِي ، كُنْتُ أنْسُجُ الحُصَرَ ، ولكنَّ حديثَ العمِّ بُوجُمعةَ كان مُسْتَوْلِيًا عَلَيَّ . فانْشَغَلَ فِكرِي ، وتَعَجَّلْتُ إنْهَاءَ عملي ، فَأَخْطَأْتُ ، أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ . وكانت أمِّي تَنْسُجُ معي ، فلاحَظَتْ تَشَتُّتَ ذِهْني ، فسألَتْني . فلم أُخْبِرْهَا .

تَمَّتِ الحَصِيرُ ، فَقَطَعْتُ الحِبَالَ الَّتِي تَشُدُّهَا إلَى النَّوْلِ . ولم أُنَظِّفْهَا ، كَعَادَتي واسْتَرَغْتُ فَشَدَدْتُ البَرْدَعَةَ على حِمَارِي ثم خرجتُ من الدَّارِ ، والمُؤَذِّنُ يُنَادِي لصلاةِ العَصْرِ . أخيرا ... جلستُ قُرْبَ العَمِّ بوجمعةَ . فسألْتُه عن صحَّتِه فأخبرني أنَّه يشعُرُ بتحسن . وقال :

ــ أَعْتَقِدُ أنّي أتَدرَّجُ نحوَ الشِّفَاءِ .

قلت : ذلك ما أتَمَنَّاهُ لك . وفعلاً ... فإنَّ وجهَك قد سَرَتْ فيه دِمَاءُ العَافِيةِ. وأنتَ اليَوْمَ أحْسَنُ منك أمْسِ . وذلك ما يجْعلُني أرجوكَ أن تُوَضِّحَ لي ما حيَّرني ، من أمْرِ الجزءِ الحيوانيِّ ، منَ المَرجان . ابتسم العمُّ بوجمعةَ ، وهو يقول :

ــ سأخبرُك بكلّ شيءٍ . فلا تَتَعَجَّلْ ، ولا تَتَلَهَّفْ ! ... الحيوان الحيُّ ، في المَرْجان شيعان : هناك طَبَقَةٌ رقيقةٌ ، لَزِجَةٌ . تَكْسُو الجزءَ الأحمرَ ، الصُّلْبَ . فَتَكُونُ كَقِشْرَةٍ له .

سكتَ العمُّ بوجمعة ، مفكِّرًا . فلم أصبرْ وقلتُ له :

ــ والجزءُ الثَّاني ؟

فقال وهو يشير بيده : على مَهْلِكَ ، يا ولدي ... اِذهبْ فهاتِ غُصْنَ شَجَرةٍ .

فَفَعَلْتُ مُسْرِعًا . وعدتُ له . فقال :

ـــ اِبْقِهِ عندك ... وانْظُرْ إليه ، وَتَأَمَّلْهُ .

فقلت : قد تَأَمَّلْتُه ، بإمْعَانٍ ...

قال : ماذَا ترى على الغُصْنِ ؟

قلتُ : ماذا هناك غَيْرُ الأوْرَاقِ ؟

قال : ومن أين تخرُج الأوراقُ ؟

قلت : من أماكنَ نَاتِئَةٍ في العودِ .

قال : شجرةُ المرجانِ فيها نُتُوءَاتٌ ، مثلُ تلك التي تَرَاهَا ... ومن تلك النُّتُوءَاتِ تَخْرُجُ اصْطِوَانَاتٌ صغيرةٌ ، نَاصِعَةُ البياضِ . وفي نهايَةِ كلِّ اصْطِوانةٍ أصابعُ كَأصابعِ الأُخْطُبُوطِ غَيرَ أنَّها دقيقةٌ ، صغيرةٌ . فتبدو ـــ من بعيدٍ ـــ على شكلِ زَهَرَاتٍ بِيضٍ ، فوقَ أغْصَانٍ حُمْرٍ .

قلتُ : مثلَ شجَرةِ المِشْمِشِ ، عندما تَحْفِلُ بأَزْهَارِهَا .

قال باسما ، وَمُرَبِّتًا بِكفِّه على كَتِفِي : بالضَّبْطِ وتِلْكَ الزَّهْرَةُ هي عبارةٌ عن خُيُوطٍ عَدِيدَةٍ تُوصِل الغِذاءَ لفمِ الحيوانَ الحيّ .

قلت : وهَلْ لِلحَيَوانِ المَرْجَانِيّ أعْضَاء ؟

قال : المَرْجانُ من الحيوانَاتِ الأوَّلِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ لهَا عِظَامٌ ولا رَأْسٌ ولاَ أرْجُلٌ ولَيْس هُناك إلاَّ الفمُ .

عدتُ أسْأَلُ العمَّ بوجمعة :

ـ هل تَنْزِعُونَ الإصْطِوَانَاتِ ، وأصَابِعَها بعد ما تُخْرِجُونَ المَرْجَانَ مِنْ البَحْرِ ؟

فقال : كلاَّ ... فإنَّنا لا نعْثُرُ عليها .

فتساءلت : أين تذهب ؟

قال : إنَّها تَنْكَمِشُ ، وتَدْخُلُ مَخَابِئَهَا ، بمُجَرَّدِ شُعُورِها بِاقْتِرَابِ شَيْءٍ منها . فإذَا أخرِجتْ لِلْبَرِّ ماتت كَكُلِّ حَيَوَانٍ مائِيٍّ .

قلت : إِذَنْ ، فرائحةُ المرجانِ تكون مُنْتِنةً ، بَعْدَ أنْ يَبْقَى في البَرِّ بَعْضَ الوقتِ ؟

قال : كَلاَّ ... فَإنَّ القِشْرَةَ ، تُغَطِّي المَنَافِذَ ، الَّتي كانَ الحَيَوَانُ الحَيُّ يخرُج منها . فلا تُشَمُّ لهُ رَائِحَةٌ بَعْدَمَا يموتُ .

قلت : تَنْتُنُ القِشْرَةُ إِذَنْ ؟

قال : لا ... أيضا ، فإنَّها تَجِفُّ بسرعةٍ ، وتلتَصِقُ بِالمادَّةِ الحمراءِ ، ولكنَّها تُنْزَعُ عنها بِسُهُولَةٍ .

سألتُ العمَّ بوجمعة :

ـ لقد رأيتُ في قِلاَدةِ أمِّي حَبَّةً من المرجانِ ، ولكِنَّها بيضاءُ ... فهل هي فِعْلاً منَ المرجانِ ، أم أنَّ مَنْ صنعَ الحبوبَ دَسَّهَا بَيْنَهَا ؟

قال : إنَّها مرجانٌ حَقِيقِيٌّ ... فإنَّه ذو ألوان مُتَعدِّدَةٍ منه الأحمرُ ، والأبيضُ ، والأسْوَدُ .

الشجرةُ البيضاءُ

سألتُ العمَّ بوجمعة :

ـ أرأيْتَ المرجانَ بألوانِه الثَّلاثِ ؟

فأجابني :

ـ أما الأحمرُ ، فإني رأيتُه كثيرًا . وأخرجتُ منه ما لاَ يُحْصَى . وأمَّا الأسودُ ،

فلم أرَهُ إطْلاَقًا . لأنَّه لا يُوجدُ في بَحْرِنَا . وأمَّا الأبيضُ ، فأنا لم أُشَاهِدْ منه ، طِيلَةَ عملي في البَحرِ ، غيرَ شجرةٍ واحدةٍ .

قلتُ له :

ـــ وهل أخْرَجتهَا ؟

فأجابني بِلَوْعَةٍ ظَاهِرَةٍ :

ـــ كلاَّ ... معَ الأسَفِ الشَّدِيدِ .

قلتُ : وما الَّذِي منَعكَ من إِخراجها ؟

قال : كان الحصولُ على شجرةٍ بيضاءَ هَدَفِي ، مُنْذُ وَفَاةِ وَالِدِي . فلمَّا أبصرتُها ، تركتُ كلَّ ما أمامي مِن مَرْجَانٍ أحْمَرَ . وأسْرَعتُ إليها . فلمَّا رفعتُ يدي بالمِطْرَقَةِ ، لأقْتَلِعَهَا من الصَّخْرَةِ الَّتي نَبَتَتْ فيها ، أحْسَستُ بشيءٍ يُلامِسُ ساقي ... فالْتَفَتُّ .. فإذَا هُو أُخْطُبُوطٌ عَظيم ، وَراءَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ . ولا تَبْدُو مِنْه سِوى إِصْبَعَيْنِ منْ أصَابِعِهِ وكانَتِ الَّتي مَسَّتْنِي وَاحِدَةٌ مِنْهَا فقطْ ، ولكنَّها كانَتْ ضخمةً جِدًّا بِحَيْثُ إنَّها أفزَعَتْنِي فزَعًا قَاتِلاً . ثمَّ مَا لَبث أن أطلَّ برأسِه العظِيم ، مِن وراءِ الصَّخرةِ ، فَبَدَتْ لي عيناهُ كمِصْبَاحَيْ سَيَّارَةٍ !!

بدَأتْ إصْبعُ الأخْطبُوطِ تَلتَفُّ حَوْلَ سَاقِي ... ورَأيْتُ إصْبِعًا ثَانِيةً تَمْتَدُّ نَحْوَ رَقَبَتِي! وبَرَزَتْ بَقِيَّةُ الأصَابعِ من مكْمَنِهَا ، وَرَاءَ الصَّخْرَةِ !!

انْحَنَيْتُ ... فَتَجَنَّبْتُ الإصبعَ الَّتِي تتَّجِهُ نَحْوَ رَقَبَتِي مُبَاشَرَةً وَبِسُرْعَةٍ جَذبتُ خِنْجَرِي المَرْبُوطَ في سَاقِي . وَقَصَصْتُ الإصْبَعَ ، الَّتِي أحاطَت بِرِجلِي ...

أَحَسَّ الأخْطبُوطُ بِالألمِ . فٱنكمشَتْ أصابعُه. فَٱغتنمتُ الفُرْصَةَ واسرعتُ بالابتعادِ ، والصّعودِ ... فَجَرَفَنِي تَيَّارٌ منَ الماءِ ، أَبْعَدَني عن الأخْطُبُوطُ ، والشَّجرةِ . فٱسترَحْتُ وَقْتًا قَلِيلاً ، ثمَّ برزتُ فوقَ الماءِ ، بِسُرْعَةٍ ، لم أَعْتَدْهَا ... وكانَ من نَتِيجَةِ ذلك . ومنَ الرّعبِ الَّذِي اسْتَوْلَى عليَّ ، أن بدَأتْ أصَابِعِي تَرْتَعِشُ ... وقد لاحظتُ ذلك ، أثْنَاءَ مُلازَمَتِي الفراشَ الَّتي دامَتْ أُسْبوعا كامِلا ... ثمَّ أخذ الارتعاشُ يَزْدَادُ كُلَّما غُصْتُ . حتَّى بلغَ الأمْرُ بِي إلى ما تَرى .

قلتُ : وهل بَقيت تَغُوصُ ، أم انقَطَعْتَ عن الغَوْصِ ؟

قال : ليْسَ الغَوْصُ سَهْلاً ... إذْ يَسْتَدْعِي بَدَنًا قَوِيًّا ، سليمًا ... وَبَدَنِي قد أَخَذَ يَضْعُفُ لتقَدُّمِ سِنِّي. ثمَّ إنّي قد أُصِبْتُ بِضِيقٍ في تَنَفُّسِي فَضْلاً عنِ السُّعَالِ المُزْمِنِ الَّذِي يُلازُمنِي من قبلُ والَّذِي هُوَ مِنْ أمْرَاضِ الغَوَّاصِينَ وهذا كلُّه زِيادَةً عنِ ٱرْتِعَاشِ يَدَيَّ ... ومنْ

ثمَّ فَقَدْ صِرْتُ لا أَقْدِرُ على البَقاءِ تَحْتَ المَاءِ ، إلاَّ قَليلاً . ولم أَعُدْ أستَطِيعُ حَمْلَ المِطْرَقَةِ ، الَّتِي أَقْتلِعُ بها المرجانَ ...

قلتُ : أَهْيَ ثقيلةٌ ، إلى هذا الحَدِّ ؟

قال : إنَّها ليستْ ثقيلةً ، لأنَّها لا تتجاوزُ الرَّطْلَيْنِ ولكنَّ ارْتِعَاشَ يَدَيَّ . وَمُقَاوَمَةَ الماءِ لهَا ، عنْدَما أضْرِبُ بها ، يجْعَلُنِي عاجزًا عنِ العملِ بها .

قلت : وهل عدت إلى شجرةِ المرجانِ البيضاءِ ؟

قال بأَسَف : عدتُ ... وعدتُ ... ولَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى وبَعْدَ أن فاتَ الأَوانُ ...

قلت : أخِفْتَ من حارِسِها ... ؟ أم تَنَقَّلَتْ مِنْ مكانِها !؟

قال : لا هَذَا ، ولا ذاك ... ولكِنِّي لم أَتَحَكَّمْ في لِسَاني . وتحدَّثْتُ عنها ، حالَ خُرُوجِي . فَسَمِعَ بها غَوَّاصٌ آخرٌ ، فذهبَ إليها ، وفَازَ بِها . بعد بَحْثٍ طويلٍ ، وَمَشَقَّةٍ .

سألت العمَّ بوجمعةَ :

ـــ ولماذا عثَر عليها هُوَ ، ولم تَجِدْهَا أَنْتَ ؟

فأجابنِي بِحُزْن واضحٍ :

ـــ لقد أخْبَرْتُك أنِّي صرْتُ ضعيفًا . ثم إنَّ الخوفَ من الأخْطُبُوطِ ، قد لاَزَمَني ...

وَتَشَجَّعَ هو ... فكانت من نَصِيبه ... والأهمّ من كلّ ذلك أنّه يغُوصُ بآلاتٍ حديثةٍ ، تُمَكِّنُهُ من البَقاءِ في الأعْمَاقِ ، مُدَّةً أطْوَلَ مِمَّا أقْدِرُ عليه ، أنا ، أوْ غَيْرِي من الغَوَّاصِين القُدَامَى .

قلت : إنَّك تَتَحدَّثُ عن خَيْبَتِك ، في الحُصول على الشَّجرةِ البيضاءِ ، بلَوْعَةٍ عُظْمَى فَتَبْدُو وكأنَّكَ فقدتَ كَنْزًا ثَمِينًا !! فَهَلْ لذلك مِنْ سَبَبٍ ، يا عمّ بوجمعة ؟

تنهَّدَ العمُّ بوجمعة . ثم قال :

ــ نعم ... فالشَّجرةُ كبيرةٌ . تبلغُ الذِّرَاعَ طُولاً . وهذا نَادِرٌ ... وَيُعْطِيهَا قِيمَةً كُبْرَى . والأهَمُّ من ذلك أنِّي لَوْ تَحَصَّلْتُ عليها ، لَصَنَعْتُ منها الحَبَّاتِ الأرْبَعَ ، الَّتي تُطالِبُني الوَصِيَّةُ ، بإضَافَتِهَا إلى القِلاَدَةِ ...

قلتُ بشَيْءٍ من الاسْتِغْرَابِ :

ــ أيَّةُ وَصيَّةٍ !!؟ وأيَّةُ قِلاَدَةٍ !؟

قال وهو يَعضُّ على شَاربِهِ : تلكَ قصّةٌ أُخرَى .

قلت : بِلَهْفَةٍ ، وشَوْقٍ : قُصَّهَا عَلَيَّ .

حَرَّكَ العَمُّ بوجمعة يَدَهُ ورأسَه ، رافِضًا طَلَبِي : ثم قال :

ـ ذلك سِرِّي ... ولَنْ أبوحَ به ، ما دَامَ أمَلِي ، في الشِّفَاءِ ، لم يَنْقَطِعْ بَعْدُ وما غادرْتُ بلْدَتِي وَبَقِيتُ هنا إلاَّ بَحْثًا عن البُرْءِ والعافِيَةِ ... إنَّ هدَفي ، في حياتي أنْ أعُودَ للبَحْرِ ، لأجِدَ المَرْجَانَ الأبْيَضَ .

قلت : أخْبرْني عن سِرِّكَ ، وأعِدُكَ أنّي لن أُفْشِيهِ لأحَدٍ . بل إنِّي سأكونُ عَوْنًا لك ، على تحقِيقِ أمَلِكَ ، والظَّفَرِ ببُغْيَتِكَ .

قال : عندها سَأكْشِفُ لكَ السرَّ ... أمَّا الآنَ ... فأرجُوك أن لا تُلِحَّ علَّي ...

لم أرَ فائدةً في الحَديثِ عنْ هذا الأمْرِ ، ولا في الإلْحَاحِ فسَكَتُّ ...

رأى العمُّ بُوجمعة ما بَدَا على وَجْهِي من تأثُّرٍ وَوُجُومٍ فَأهَمَّهُ الأمْرُ وَبَدَا ذلك جَلِيًّا على ملامِحِه ومع ذلك ، أصَرَّ على قَوْلِهِ . ولم يُغَيِّرْ عَزْمَهُ . ولِكَيْ يُزِيلَ عَنِّي تَأثُّرِي ، أخذَ يُحَادِثُنِي في مَواضِيعَ بعيدَةٍ كلَّ البُعْدِ عن المرجانِ والبَحْرِ ... ولم نَعُدْ للحديثِ عن القلاَدةِ ، والوَصيَّةِ ، لا في ذلكَ اليَوْمَ ... ولا فيما تَلاَه من الأيَّامِ ... وإن كنتُ ، في قَرَارَةِ نفسي أكَادُ أذُوبُ شَوْقًا ، لِمَعْرِفَةِ سرِّ العمِّ بُوجمعةَ .

بلدُ الجمالِ والمَرْجانِ

شُفِي العمُّ بوجمعةَ من الحُمَّى . وزالَتْ أعْرَاضُهَا ومن غَريب الصُّدفَةِ أنَّ الحُمَّى كانت داءً ودواءً للعمِّ بُوجُمَعَة ، فقد نَقَصَ ارْتِعَاشُ يَدَيْهِ ، واستَمَرَّ يَضْعُفُ ويَتَنَاقَصُ حتَّى كادَ

لا يُحَسُّ وَكذلِكَ شُفِيَ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ بِفَضْلِ الدَّوَاءِ الَّذي أعْطاه إيَّاهُ الشَّخْصُ الَّذي غادَرَ بَلْدَتَهُ منْ أجْلِهِ . أمَّا السُّعَالُ فإنَّه وَإنْ خَفَّ إلاَّ أنَّهُ لم يَنقطِعْ تَمامًا .

ومَضَتْ أيَّامٌ ...

وذاتَ صَبَاحٍ ، نادَاني العمُّ بوجمعة . وقال لي :

— أنتَ تراني ، وقد أصْبَحْتُ بخَيْرٍ ...

قلتُ : لقد رأيتُ ذلك . وسرَّني كثيرا . وأتمنَّى لك زيادةَ الشِّفاءِ والسَّلاَمَةَ من جميعِ الأمْراضِ .

قَالَ : شُكْرا لك . فذلك ما أتحقَّقُه منك .

قلت : ما دمتَ قد شُفِيتَ ، فماذا نَوَيْتَ ؟

قال : سأرجِعُ إلى بلدي . وسأعودُ للبحرِ .

قلت : لِتَصْطَادَ المرجانَ . وتبحثَ عن الشَّجرة البيضاءِ ؟

قال : نعم ... فذاك أمَلِي في حياتي ومُبْتَغَايَ مِن دُنْيَايَ .

قلت : ألاَ تَحْمِلُني معك ؟

قال : بِوِدِّي أن أفْعل ذلك فأنا واثِقٌ بأَمَانَتِك ومُعْجَبٌ بِشجاعتِك ومُحِبٌّ لِخِلاَلِكَ الحميدَةَ ، ولكنَّك وحِيدُ والِدتِك . وما أظنُّها تَسْمَحُ لك بِمُفارَقَتِها .

قلت : لا يَهُمُّكَ أمْر والِدتي ، فأنَا أعرِف كيف أُقْنِعُهَا . عِدْنِي أنت فَقَطْ .

قال : أعِدُكَ بذلك . وبأنْ أُعَلِّمَكَ الغَوْصَ ، وأُلَقِّنك أسْرارَه .

* * *

أثناءَ السَّهرةِ ، في تلك اللَّيلَةِ ، عرضتُ الأمرَ على والِدتي ، واستَأْذَنْتُهَا في السَّفرِ . فأبَتْ . فألْحَحْتُ . فازْدَادَتْ إباءً . فلم أيْأَسْ . وما زِلْتُ بها ، أُمَنِّيهَا ، وأُغْرِيهَا ، وأطَمْئِنُها حتَّى لانَتْ ... وأخِيرًا وَافقَتْ .

وهكذا سافرتُ . وَغَادرتُ الجَنُوبَ ، وحَلَلْتُ بأقْصَى الشَّمالِ . ومن أوَّلِ وَهْلَةٍ ، بهَرَني جمالُ الطَّبيعَةِ هناك :

جِبَالٌ شَمَّاءُ ، تُعمِّمُ هَامَاتِهَا سُحُبٌ دَهْمَاءُ ، لا تَخْلفُ الظَنَّ أبَدًا : تَجُودُ بِمَائِها الثَّمِينِ باستِمْرَارٍ على أرْضٍ مِعْطَاءَ . فَتَكْتَسِي خُضْرَةً دائِمَةً وَتَتَزَيَّنُ بِنَبْتٍ وأزْهَارٍ فَيَتلطَّفُ الجوُّ وتَنْتَعِشُ النُّفوسُ .

تذكرتُ طبيعَة الجنوب القاسيَة ، فقلتُ في نفسي :

سُبْحَانَ من قَسَّمَ الحُظُوظَ ، ومَيَّزَ بَيْنَ النَّاسِ . والأَرَاضِي !! أَيْن الجَنُوبُ من الشَّمَالِ ؟!

أَيْنَ السَّحَابُ السَّهِفُ ... هناك ... من المُزْنِ المُثَقَّلِ بالأَمْطَارِ هُنا ؟

أينَ الرِّيَاحُ السَّافِيَةُ ، اللاَّفِحَةُ ... هناك ... من النَّسِيم الرُّخَاءِ ، والهواءِ العليلِ هنا ؟؟

أين التُّرْبَةُ الرَّمْلِيَّةُ ، الهَشَّةُ ، الغَبْرَاءُ ... هناك ... من التُّربَةِ الطِينِيَّةِ ، السَّوْدَاءِ هنا .... ؟

أَيْنَ الأرضُ المُنْبَسِطَةُ ، الجَرْدَاءُ ... هنَاك... منَ الجبالِ الشَّامِخَةِ ، والأشجارِ الباسِقَةِ هنا ... ؟

كذلك كان مَوْطِني . وهكذا أصْبَحَ مُسْتَقَرِّي إنَّني في مدينَة (طَبَرْقَة) الَّتي أَخَذَتْ بِلُبِّي . وَسَبانِي جمالُ الطَّبيعَةِ فيها :

رمالٌ عَسْجَدِيَّةٌ ، صَفْرَاءُ ، في شاطِئِها : وأشجارٌ زَبَرْجَدِيَّةٌ خَضْرَاءُ ، في غابَاتِهَا وَمِياهُ لازَوَرْدِيَّةٌ زَرْقَاءُ ، في بَحْرِها . فإذا وَقَفْتَ في رَبْوَةٍ من رُبَاهَا ، مَتَّعْتَ بصرَك بجمالِ الرُّبَى ، ورَوْعةِ المَاءِ ، وَبَهَاءِ الغَابِ .

رَاقَتْنِي تلك البلدَةُ الجَميلَةُ ، الوديعةُ ، فَأَلِفْتُهَا سَرِيعًا ، ثمَّ أَحْبَبْتُهَا كَثِيرًا ، وتعلَّقْتُ بها ، وَبِأَهْلِهَا الطَّيِّبِينَ .

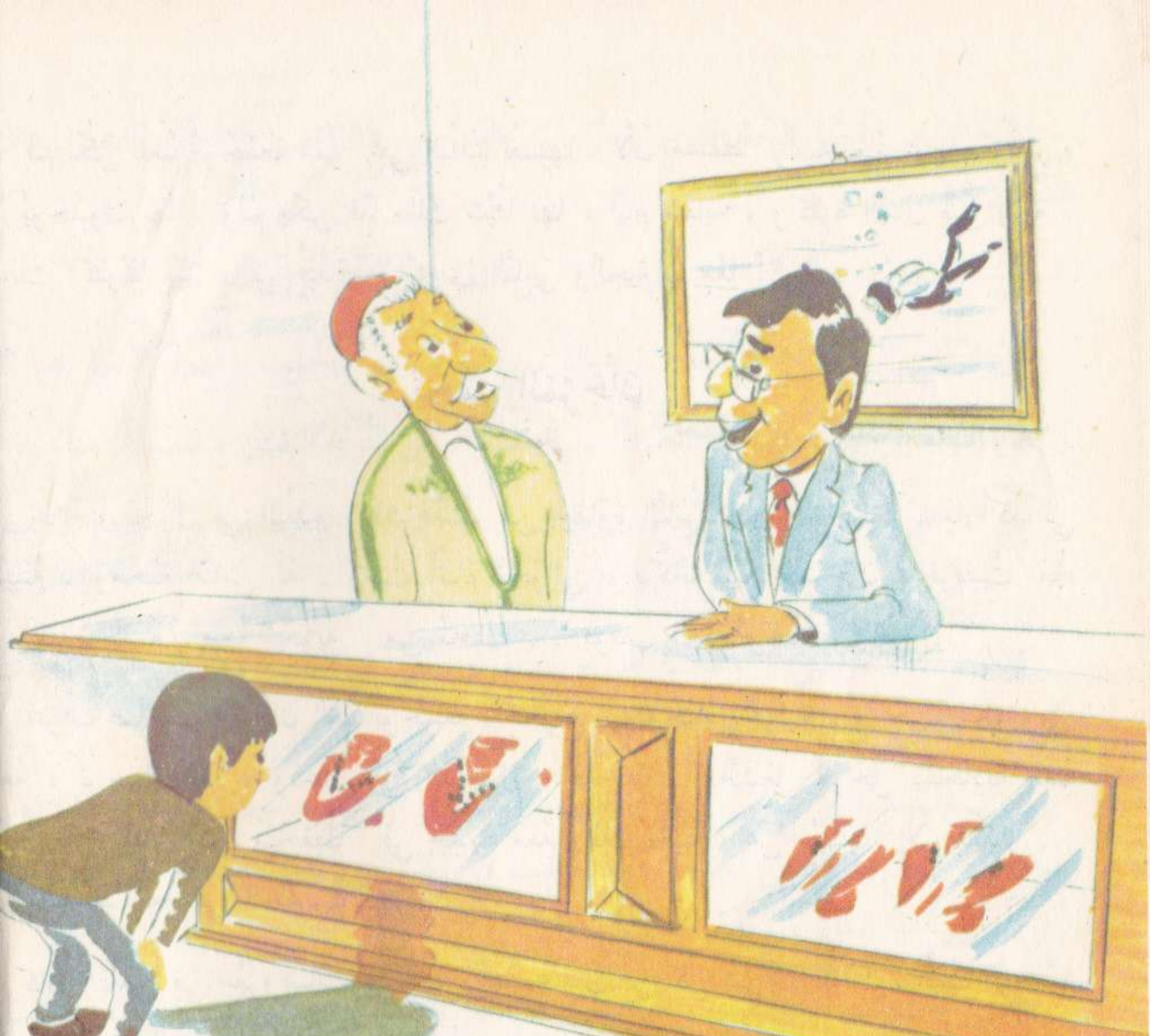
لم يَكُنْ لِلْعَمِّ بُوجُمَعَة مَقَرٌّ في البَلْدَةِ نَفْسِها ، لأنَّ مَسقَطَ رأسِه بَعيدٌ عنها ، وأقارِبَه لا يُوجَدُونَ بها . ولم يكن قدْ ملَكَ شيْئا بها ، أيَّامَ شبَابه ، وكَثرَةُ المالِ بَيْنَ يَدَيْهِ . لذلك اكْتَرَيْنَا بَيْتًا ، في فُنْدُقٍ ، يُؤوِي النَّاسَ والحيوانَ معًا !؟

تُحَفُ المَرْجَانِ

خَرَجْنَا نَجُولُ في البَلْدَةِ ، فشاهَدْتُ من حَفَاوَةِ النَّاسِ بالعمِّ بوجمعة ، مَا أكَّدَ لي طِيبَتَهُ ، وَمَحبَّةَ النَّاسِ لَهُ . رَأيتُ أثْنَاءَ تَجْوَالِي ، دكَّانًا لبَيْع المرجانِ ، فوقفتُ أمَام واجِهَتِهِ ، أتَمَعَّنُ فيما تَحْوِيه من تُحَفٍ ... فَوَقَفَ العمُّ بُوجمعةَ إِزَائِي .

عرفَ صاحبُ الدكَّان العمَّ بوجمعة ، فخرج إِليه وحَيَّاهُ بحرارةٍ ، ورَحَّبَ به، وَبِي مَعَهُ ، تَرحيبا بالِغا ، ودَعانا إلى الدُّخولِ ، فَدَخَلْنَا . وانْشَغَلَ الرَّجُلُ بمُحَادَثَةِ العمِّ بوجمعة ، الَّذي كان مُتَحَفِّظًا في حَدِيثِه مَعهُ ، فلاَ يُجِيبُهُ ، عن أسْئِلَتِه إلاَّ بِمِقْدَارٍ ... ولا يَتَبَسَّطُ معه في الحديثِ .

كان التَأمُّلُ فِي مَعْرُوضَاتِ الدُّكانِ ، أهمَّ عِنْدِي من كلِّ شَيْءٍ . لِذلك تركْتُ الرَّجلَيْن يتحادَثانِ ، وانصرفْتُ أتَفَحَّصُ بإعْجَابٍ شديدٍ ، التُّحَفَ المَرْجَانِيَةَ الَّتي تَمْتَلِئُ بها واجهَةُ الدُّكانِ .



كان المرجانُ مَنْحُوتًا ، في أشكالٍ مُتَنَوِّعَةٍ ... فهناك حُبُوبٌ ثُقِبَتْ ، ونُظِّمتْ عُقُودًا وَسُبَحًا ... وهُنَاكَ فُصُوصُ خَوَاتِمَ ، وَقُرُونُ فُلْفُلٍ ، ومَصَاحِفُ وَصُلْبَانٌ وتَمَاثِيلُ ، وأشْكَالٌ عَدِيدَةٌ بَدِيعَةٌ... وكُلُّها ذاتُ لَوْنٍ أَحْمَرَ قان ، يُبْهِجُ النَّظَرَ ، ويَسُرُّ الفُؤَادَ : كما كان هناك عِقْدٌ من المَرْجَانِ ، المطَعَّمِ باللُّؤْلُؤِ ، لم أَرَ أَجْمَلَ منه ، ولا أَرْوَعَ !

كانَتْ بالدُّكّانِ أشجارٌ كاملةٌ ، منَ المَرْجان ، على حَالَتِها الطَّبِيعِيَّةِ ، وقد وقفتُ أمامَها ، أتَأَمَّلُهَا بإِعْجَابٍ ، لا حُدُودَ لَهُ وَلكِنِّي لاحظْت أنَّ الأشْجَارَ لَيْسَتْ في لَوْنِ المَرْجانِ المَصْنُوعِ : فاحْمِرارُهَا مَشُوبٌ بِغُبْرَةٍ يُخَالِطُهَا بَيَاضٌ . وكانَتْ كَأَشْجَارِ الخريفِ ، تساقَطَتْ أَوْرَاقُهَا فلم يبْقَ بها غيرُ الأغْصانِ ، ترتفِعُ نحوَ السَّماءِ ... وغيرُ بعضِ الصَّخْرِ الأَزْرَقِ الَّذي اقْتُلَعَ مع جُذُورِهَا ، فَبَقِيَ لاَصِقًا بها .

سألتُ صاحبَ الدّكانِ :

ـــ ما بالُ بعضِ المرجانِ شديدِ الاحمرارِ ، وبعضِه الآخرِ تُخَالِطُ حُمْرَته غُبْرَةٌ ؟

أمْسك التَّاجرُ سُبْحَةً من المرجانِ الأحمرِ القانِي . وقرَّبهَا منِّي ، ثم قال :

ـــ هذا المَرْجَانُ قد احْمَرَّ لَونُه ، لأَنَّنا نَزَعْنَا عَنْهُ قِشْرتهُ ، ودَهَنَّاهُ بالزَّيْتِ ، ثُمَّ نَحَتْنَاهُ وصَقَلْنَاهُ ، وصنَعْنَا مِنْهُ الأشْكَالَ المُتنوعةَ ، الَّتي تراهَا أمَامَك .

قلت : وَبِماذَا تَنْحتُونَهُ ؟



قال : لدْينا رحِيٌّ ، خاصَّةٌ نَنْحَته بهَا .

ثم أمْسَك شجرةً ، وقال :

ــ أمَّا هذا المَرْجَانُ ، فإنه باقٍ على حالَتِهِ الطَّبيعِيَّةِ الَّتي كانَ عليْهَا ، في البحر . واللَّونُ الأغْبَرُ الَّذي لفَتَ آنْتِبَاهَك هو لَوْنُ الحيوَانِ الحَيِّ أو الجِلْدَةِ .

سألته : هلِ القشرةُ مُلْتَصِقَةٌ كثيرًا بالمَرْجَانِ ؟

أجابني : بالعَكْسِ . فإنَّ انْتِزَاعَهَا سَهْلٌ .

ثم أعْمَلَ ظُفْرَهُ في القِشْرةِ ، فتَمَزَّقَتْ بسُهولَةٍ ، وَتَنَاثَرتْ قِطَعًا رَقِيقَةً ، في راحَتِهِ فقذفها على الأرضِ .

كان العمّ بوجمعة يَسمعُ ، ولكنَّه لم يُشارِكْنا الحديثَ ثم جَذَبَني منْ ذراعي ، وَخرج بي ، بعد أن حيَّى صاحِبَ الدُّكانِ ، تَحِيَّةً فاتِرَةً ...

مـــع الغـــوَّاصِ

سألتُ العمَّ بُوجمعة :

ــ مَالَكَ تُعامِلُ الرَّجُلَ بِبُرُودٍ ... وَلِمَاذَا رَفضْتَ العملَ معه ؟ فأجابَنِي :

هذا الرّجلُ غَوَّاصٌ قديمٌ مِثلي. وقد أثْرَى في غيابي . فاْمْتَلَكَ السُّفُنَ ، وفتحَ الدّكاكينَ وأصْبَحَ من الأغْنِيَاءِ المَرْمُوقِينَ .

قلت : وماذا في ذلك ؟ لا شكَّ أنَّه حكِيمٌ في تَصرُّفِهِ ، فأثْرَى من عمله ، وذاك ما يُحْمَدُ عَلَيْهِ .

قال : أنَا أعْرَفُ بأخْلاَقِهِ من كلِّ أحَدٍ !! إنَّه يَسْتَغِلُّ جهودَ غَيرِهِ ، ويأكُلُ عَرَقَ عَمَلَتِهِ ، لِذَلِكَ رَفَضْتُ العَمَلَ معهُ .

قلت : أتَعُودُ إلى الغَوْصِ مُسْتَقِلاًّ منْ كلِّ أحدٍ ؟

قال : كلاَّ فَصَيْدُ المَرجَانِ يَسْتَلْزِمُ سَفِينَةً . وأدَوَاتٍ . وأنا لا أمْلِكُ من ذلك شيئا

قلت : وما العَمَلُ ؟ أنَبْقَى عاطِلَيْنِ عنِ العملِ ، إلَى أن تَتوفَّر السَّفِينَةُ والمُعَدَّاتُ إنّنا سَنمُوتُ جُوعًا ، قَبْلَ أن يَتحَقَّقَ لنا ذلك .

قال : اِطْمَئِنَّ ...فهناك غَوَّاصٌ آخرُ ، أكْرَمُ منه أخْلاَقًا ، وَأوْفَرُ أدَوَاتٍ . وَقَدِ اتَّفَقْتُ معه ، على أن أعْمَلَ عندَهُ .

فقلتُ : بِلَهْفَةٍ وَاضِحَةٍ : وأنا ؟ هل حَدَّثْته عَنِّي ؟

قال : سَأفْعَلُ ذلك الآن ... فهَيَّا بنا إلَيه .

حقا ... لقد كان الغَوَّاصُ الثَّاني واسمُه عليّ كريمَ الأخلاقِ . فَبَشَاشَتُه ، وسَمَاحَةُ نفسِهِ تأسُرُكَ . وَلُطْفُ حَديثِه معك ، يَجْعَلُكَ تُحِبُّه ، وَتُسَايرُهُ ، وَتُنَفِّذُ ما يطلُبه منك ، عن طِيبِ خَاطِرٍ .

اتفق الغَوَّاصُ مع العمِّ بوجمعة ، على أن نَعْمَلَ معًا، فِي سفِينَتِهِ. ووعدَنِي بِتَدْرِيبِي على الغوصِ ثمَّ قال :

ـ من حُسْنِ حظِّكَ ، أنَّ لديَّ كِسْوَةَ غَوْصٍ على قِيَاسِك ، أعْدَدْتُها لِغَيْرِكَ . وستكونُ لك إن أظْهَرْتَ كَفَاءَتكَ .

قلتُ بثِقَةٍ :

ـ سوْفَ ترى مِنِّي ما يَسُرُّكَ .

أراني عَلِيٌّ كِسْوَةَ الغَوْصِ . فأعْجَبَنِي لَونُهَا الأزْرَقُ ، الدَّاكِنُ . ولَمَسْتُ قِمَاشَهَا ، فإذا هُوَ شَبِيهٌ بِالمَطَّاطِ ... وقد شَعُرْتُ بِنَشْوةٍ وَغِبْطَةٍ ، عندما كُنْتُ أتَحَسَّسُهَا . وتمنَّيتُ أن أرْتَدِيَهَا .

وفعْلاً ... أدْخَلْتُ يديَّ في كُمِّهَا ... ثم كَبَحْتُ جِمَاحَ نَفْسِي ... فَأعْدْتُها لصاحِبِهَا وأنا أتنَهَّدُ ، بدونِ أنْ أشْعُرَ .

تفطَّنَ الغَوَّاصُ عليٌّ مما حلَّ بي ، فقال لي :

ـــ تَرَفَّقْ بِنفسِكَ ، وتَأنَّ ، يا ولدي ، فليس الغَوْصُ سَهْلاً، عليك أنْ تُرافِقَني ، أولا ، لترى مَا أقومُ بهِ، من عملٍ شاقٍ ، مُرْهِقٍ . وما أتعَرَّضُ له من مَخَاطِرَ ... وعِنْدَهَا تَعْرِفُ طَبيعَةَ العَمَلِ ، وما أنت مُقْدِمٌ عليه من خَطَرٍ .

تداخَلَ العمُّ بُوجَمَعة . فقال يُخَاطِبُنِي :

ـــ الحَقُّ معه ، يا عبدَ الله ـــ فاصْبِرْ ... وبيِّنْ كَفَاءَتَكَ الَّتي أعْرِفُهَا فيك . وعندها تَرْتَدِي الكسوةَ ، عن جَدَارَةٍ واِسْتِحْقَاقٍ .

قلت : سأفعل ، وَعَسَى أن لا يطولَ أَمَدُ تَدْرِيبِي ، فإنِّي أتَحَرَّقُ شَوْقًا إلَى اليومِ الَّذِي ألبَسُ فيه كِسْوَةَ الغوصِ .

قال عليٌّ : الأمرُ مُتَوقِّفٌ على استعدادِكَ ، وشَغَفِكَ بهذا العملِ .

قلت أسألُهُ : هَل تخرُجُ اليَوْمَ للبحرِ ؟

فَبادَرَ العمُّ بوجمعة بالجوابِ . قال :

ـــ لا يمكن الخروجُ اليومَ ... فالبَحْرُ مُضْطَرِبٌ ، ولا يُصَادُ المرجانُ إلا في الجوِّ الصَّافِي ، حِينَمَا يكونُ البحرُ هادِئًا ، رَائِقًا .

ملاحظـة وتمريـن

انْقَطَعَتِ العَوَاصِفُ . فَهَدَأَ البحرُ ، وسَكَنَتِ الأمْوَاجُ . فَرَاقَ المَاءُ وصَفا . وَأصْبَحَ

النَّسِيمُ رُخَاءً ، لَطِيفًا ، مُنْعِشًا . خَرَجْتُ مع عليّ وبَحَّارَتِهِ ، في سَفِينَةِ صَيْدِ المَرْجَانِ ... وقد كِدْتُ أطيرُ ، فرحًا وسُرُورًا ، بِدُخُولِي البحرَ مُتَعَلِّمًا . توغلنا في البحر . فرأيت من بعيد ، كرة حمراء تطفو على سطح الماء . فَقلْتُ لعليّ وأنا أشير للكرة :

ــ أرَأيتَ تلكَ الكرةَ ؟ مِلْ بنا إلَيْهَا ولِنَلْتَقِطَهَا . فلا شكَّ أنَّها سَقَطَتْ من بَعْضِ البَواخِرِ .

فأجَابَنِي بجَوَابٍ لم أكُنْ أتوقّعُهُ أبَدًا . قال :

ــ لن تَكونَ بحَّارًا ماهرًا ، ولا صيَّادًا بَارِعًا ، حتّى تكونَ دَقِيقَ المُلاَحَظَةِ !! انْظُرْ إلى الكُرَةِ ... أتَرَاهَا تَسِيرُ ؟ فتَأَمَّلْتُهَا . ثم قلتُ :

ــ إنَّ أمرَها غريبٌ !! فإنَّها ثَابِتَةٌ في مكانِهَا ، لا تُغَادِرُه .

فقال عليّ مُبْتَسِمًا :

ــ لا غَرَابَةَ في الأمْرِ . فإنَّها مشدودَةٌ بحبلٍ إلى حَجَرٍ ، في قاعِ البحْرِ . وإليها نَقْصِدُ .

تركتُ عليّا ، واتَّجهتُ نَحْوَ العمِّ بوجمعة فَوجدْتُه جالِسًا ، أمامَ الآلةِ الّتي كلّفه عليٌّ بِمُرَاقَبَتِهَا . وهي عبارةٌ عن صندوقٍ حديديّ ، بِهِ واجهةٌ زُجاجيّةٌ . وقد كنتُ حاضرًا عندما قالَ لَه عليّ :

ـــ هذا الجِهَازُ ، يا عمّ بوجمعة ، يَسْبُرُ أعماقَ البحرِ . ولذلك فنحنُ نَدْعُوهُ (عَيْنَ البحرِ) .

سألتُ عليّا : وما فَائِدَتُه لك . وهو فوقَ السَّفينةِ ، وأنتَ تحْتَ الماءِ ؟

قال : إنَّه يُبَيِّنُ مواقِعَ الصُّخُورِ ... وهي مَنَابِتُ المرجانِ طَبْعًا .

قلت : أَتَظْهَرُ صورَةُ الصَّخْرَةِ على شَاشَتِهِ ؟

قال : لاَ ... وإِنَّمَا هو يَرْسُمُ خُطُوطًا مُرْتَفِعَةً ، إذا كانت هُناكَ صُخُورٌ . فإِذَا كَان قاعُ البحْرِ مُسْتَوِيًا ، فإنَّه يَرسُمُ خطًّا مُسْتَقِيمًا ، لا اعْوِجَاجَ فِيه .

قلت : وإِذَا انْحَدَرَ الخَطُّ إلى أسْفَلَ ؟

قال : ذلِكَ يَعْنِي أنَّ هناكَ حُفَرًا عَمِيقَةً .

وَصَلْنَا الكُرَةَ الحمراءَ ... فَنَظَرْتُ لـ (مِسْبَارِ العُمْقِ) فإذا المِنْطَقَةُ كُلُّها صُخُورٌ . وفوقَ هذه الصّخورِ ، وقريبًا من الكُرةِ الحمراءِ ، وقفتِ السَّفينةُ ، فَرمَى أَحَدُ البحَّارةِ مِرْسَاةً . شَدَّتِ السَّفينَةَ إلى قاع البَحْرِ .

نزع علِّي ثيابَهُ وبدأ يَرْتَدِي كِسْوَةَ الغَوْصِ ... فلبِس السَّراوِيلَ . ثمَّ الجَمَّازَةَ . ثمَّ الحِذَاءَ ، فغِطَاءَ الرَّأسِ . وشَدَّ وَسَطَهُ بِحزَامٍ ، مُثَقَّلٍ بِحَلَقٍ من رصاصٍ ، لا يَقِلُّ وَزْنُها

عن ستَّةِ أرْطَالٍ . ولبسَ بعدَ ذلِكَ ، في قَدَمَيْهِ ، مِسْبَاحَيْنِ ، كَسَاقَيِ الضِّفْدَعِ . وَوَضَعَ البَحَّارَةُ على ظَهْرِه قَارُورَتَيْنِ ، مَمْلُوءَتَيْنِ هَوَاءً ، وَمَوْصُولَتَيْنِ بأُنْبُوبٍ ، يَنْتَهِي بِنَفَّاسَةٍ ، تَركها تَتَأرْجَحُ على صَدْرِهِ ، ثمَّ وضع على عَيْنَيْهِ نَظَّارَةً كَبِيرَةً ، ذاتَ زُجَاجَةٍ وَاحِدَةٍ تَسْمَحُ له بالرُّؤْيَةِ ، وتَمْنَعُ الماءَ من الوُصُولِ لِعَيْنَيْهِ . ولم يَنْسَ أن يَشُدَّ إلى سَاقِهِ خِنْجَرًا كَبِيرًا ، في غِمْدِهِ . ثمَّ وَضَعَ في مِعْصَمِ يدِهِ اليُمْنَى سَاعَتَيْنِ : واحدَةً لمعرِفَةِ الوقتِ . والثَّانيةَ لتَعيينِ العُمْقِ . كما وضَعَ في المِعْصَمِ الأيْسَرِ ، ساعَتَيْنِ أيْضًا : إحْدَاهُمَا تُبَيِّنُ ثه مقدارَ الضَّغْطِ الَّذي يَتعرَّضُ له، وهو في الأَعْمَاقِ وثَانِيَتَهُمَا بُوصَلَةٌ ، تَهْدِيهِ للاتِّجَاهِ الصَّحِيحِ .

أَتَمَّ عليّ لُبْسَ كِسْوَتِهِ . فقال للبحَّارةِ :

ــ هاتوا السَلَّةَ ، والمِطْرَقَةَ .

فأعْطَوْهُ سلَّة من خَيْطٍ ، بها بِضْعَةُ أحْجَارٍ ... ومِطْرَقَةٌ فأغلقَ فَاهَا على المِطْرَقَةِ ، والحجَارَةِ . ورَبَطَهَا بِخَيْطٍ ، مُتَّصل بالسَّفِينَةِ . وقد رأيْتُ بِجَانِبِهِ حَبْلاً ثانيا ، أكبَرَ مِنه ، فسألتُ عنه، فأخْبَرُوني أنَّهُ دَلِيلٌ وهاتِفٌ : إذْ يَصْعَدُ بجانبه فَيُمْسِكُهُ أثْنَاء استِرَاحَتِهِ وَيُحَرِّكُهُ إنْ أرادَ الاتِّصالَ بِبَحَّارَتِهِ . وأخِيرًا ... وضَع عليّ النَفَّاسَةَ في فَمِه ... ثمَّ أَلْقَى بِنَفْسِهِ في اليَمِّ ...

تَتَبَّعْتُ مَجْرَى الخَيْطِ ، الَّذي رُبِطَتْ بِه السَّلَّةُ ، فإذا هو يَغُوصُ بِسُرْعَةٍ عجيبةٍ … ثم تَوَقَّفَ بعد أَرْبَعِ دقائق .

قلتُ لمراقِبِ الحَبْل :

ـ ما بَالُهُ قد وَقَفَ . أَتُراهُ قَدْ وَصَلَ ؟

قال : نعم :

قلتُ : أَبِهَذِهِ السُّرْعَةِ ؟!!

قال : إنَّه أَبْطَأَ اليَوْمَ . فعادَتُهُ أن يَبْلُغَ عُمْقَ ثَمَانِينَ مِتْرًا في ثلاثِ دقائِقَ فقط .

كُنْتُ جَالسًا قُرْبَ العَمِّ بُوجمعة . فأَلْقَيْتُ نَظْرَةً على الشَّاطِىءِ فأَبْصَرْتُ نَهْرًا يَنْصَبُّ مَاؤُهُ الغزيرُ ، في البحرِ . فقلت للعمِّ بوجمعة :

ـ أَلاَ يُؤَثِّرُ ماءُ النَّهرِ على ماءِ البحرِ ، فَيُعَكِّرُهُ بِالتُّرابِ الَّذي يُحمِّلُهُ ، ومن ثَمَّ فإنَّ الغَوَّاص لا يُبْصِرُ بُوضُوحٍ ؟

قال : إنَّه يُعَكِّره فِعْلاً … ولَكِن في مَنْطَقَةٍ مَحْدُودَةٍ ، ولأَمَدٍ قَلِيلٍ . فَإِنَّ المَوَادَّ الَّتِي يَأْتي بِهَا مَاءُ النَّهرِ ، تَرْسُبُ بِسُرْعَةٍ . في قَاعِ البَحْرِ .

قلتُ : وَيَمْتَزِجُ الماءُ الحُلْوُ بِمَاءِ البَحْرِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

فضَحِكَ ، وقال :

ـــ لا ... يا بُنَيَّ . فإنَّ المَاءَ الحُلْوَ يَرْسُبُ هو أيْضًا في قاعِ البَحْرِ ، لأنَّهُ أثْقَلَ من المَاءِ المِلْحِ . وأنا أعْرِفُ يَنَابِيعَ في قاعِ البَحْرِ ، قُرْبَ الشَّاطِىءِ ، فإذَا عَطِشَ أحَدُنَا غَاصَ إلَيْهَا ، فشَرِبَ منْهَا مَاءً حُلْوًا ، وَسْطَ مَاءِ البَحْرِ !

سألِنِي العمُّ بوجمعة : أتَعْرِفُ لماذا يَنْبُتُ المَرْجَانُ هُنا ؟

قلت : وأنَّى لي أنْ أعْرِفَ ؟

قال : إنَّهُ يَنْبُتُ قَرِيبًا من مَصابِّ الأنْهارِ ، لِيَتَغَذَّى بما تَحْمِلُهُ مِيَاهُهَا من مَوادَّ ! وقد يكونُ الماءُ الحُلْوُ ، نَفْسُهُ ، نَافِعًا لَهُ .

لم يَكُنْ لِلْبَحَّارَةِ عَمَلٌ . غَيْرَ مراقَبَةِ الحَبْلِ ، وآنْتِظَارِ خُروجِ الغَوَّاصِ . فَبَقِيتُ أنْتَقِلُ منُ مَكَانٍ إلَى مكان ، أُحَادِثُ هذا ، وأعِينُ ذَاكَ ، حَتَّى مَرَّ وَقْتٌ ، خِلْتُهُ دَهْرًا . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَجَاوَزْ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً . فقلْتُ لِبحَّارٍ بجَانِبي :

ـــ أتَرَاهُ سَيَبْقَى طَوِيلاً ، في أعْمَاقِ البَحْرِ ؟

قَالَ : إنَّهُ لاَ يَبْقَى في الأعْمَاقِ ، يَصْطَادُ المرجانَ ، أكْثَرَ مِن الوَقْتِ الَّذي قَضَاهُ الآن . فخمسةَ عَشَرَ دَقِيقَةً وَقْتٌ طَوِيلٌ جِدًّا ، ولا شكَّ أنَّهُ صَاعِدٌ في هَذا الوَقْتِ .

انْتَظَرْتُ قُرَابَةَ العَشْرِ دَقَائِقَ أُخْرَى . فلم أُبْصِرْهُ يَخْرُجُ فقلتُ في نَفْسِي : (قد يكونُ الصُّعودُ ــ كَالعَادةِ ــ أَشَقَّ من الهُبُوطِ) فانتظَرْتُ دَقَائِقَ أُخْرَى ، وَأنَا أَتَوَقَّعُ أنْ أَرَاهُ يَبْرُزُ على سَطْحِ المَاءِ ... فَلمَّا طَالَ الوَقْتُ ، ولمْ يَظْهَرْ لهُ أَثَرٌ قُلْتُ لِمُرَاقِبِ الحَبْلِ :

ما بَالُهُ لم يَخْرُجْ ، لِحَدِّ الآن ؟ إنَّه لم يَقْضِ في الهُبُوطِ إلاَّ أَرْبَعَ دقائقَ ... أفلا تكفيه عشرون للطلوع ؟!

قال : قطعًا ... إنَّها لا تكفيه . فالصمود أشق بكثير ، وأخطر ، لذلك فإنَّه يقضي حوالي الساعة في الطلوع .

قلتُ مُسْتَغْرِبًا :

ــ السَّاعةِ . ؟ أيْنَ يقْضِيهَا ؟ وما يَصْنَعُ فيها ؟

قالَ : يَقْضِيهَا في الماءِ طَبْعًا . أمَّا الَّذي يصنَعُه أثْنَاءَهَا . فالأحْسَنُ أنْ تَسْأَلَهُ هُوَ . فَإِنَّهُ أدْرَى مِنِّي ، ومن غَيْرِي بذَلِكَ .

سَكَتَ . وَبَقِيتُ أَنْتَظِرُ خُرُوجَ الغَوَّاصِ ، وبَصَرِي مُرَكَّزٌ عَلَى سَطْحِ المَاءِ مَرَّةً ، وعَلَى سَاعَتِي أُخْرَى .

تحرَّكَ الخَيْطُ ، الَّذي يُمسِكُ سَلَّةَ المَرْجَانِ . فأسْرَعَ البَحَّارُ بِجَذْبِهِ ، فَجَعَلْتُ أَتَرَقَّبُ

خُروجَها ، حَتَّى بَرَزَتْ من الماءِ ، وهي مُمْتَلِئَةٌ بِأَشْجارِ المَرْجَانِ ، من مُخْتَلِفِ الأَحْجَام وَالأَشْكَالِ . فَبَيْنَها الَّتي يَبْلُغُ طُولُهَا خمسين صَنْتِمِتْرًا وأَكْثَرُهَا لا تتجاوزُ العشرينَ إلاَّ بِقَلِيلٍ .

أَمْسَكتُ شجَرةً . وَرَفَعْتُهَا أَمَامَ عَيْنَيَّ . فإذَا الطَّبَقَةُ الحَيَّةُ البَيْضَاءُ لَزِجَةٌ مُلْتَصِقَة بما تَحْتَهَا من جِسْمٍ صُلْبٍ . حَاوَلْتُ كَسْرَهُ ، فَصَعُبَ عليَّ . وكانت بكلِّ غصنٍ منَ الشَّجَرَةِ نُتُوءَاتٌ ، غَطَّتْهَا القِشْرَةُ ، فَسَدَّتْ مَنَافِذَهَا . ولم يكن لِلْحَيَوانِ الحَيِّ ، الَّذي حَدَّثَني عنه العمُّ بوجمعة، أيُّ أثرٍ. وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ سَيَتَلاَشَى دَاخِلَ المَرْجَانِ ، شَغَلَنِي الاهْتِمَامُ بأَشْجَارِ المَرْجَانِ ، وتَأَمُّلِهَا واحِدَةً ، واحدةً ، فلم أَشْعُرْ بانْقِضَاءِ الوقتِ . ولكنَّ العَمَّ بوجمعة نَبَّهَني إِلَى قُرْبِ خُرُوجِ الغَوَّاصِ ، عندما قال يُخَاطِبُني :

ـــ انْظُرْ يا عَبْدَ الله إِلى عليّ ... إنَّه الآن عَلى عُمْقِ ثَلاثَةِ أَمْتارٍ ... وهذِه هي الاسْتِرَاحَةُ الأخيرةُ .

بَرزَ عليٌّ فوقَ سَطْحِ الماءِ ، فَتَلَقَّفَهُ البحَّارةُ ، ورَفَعُوهُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وبَادَرُوا بإِعَانَتِهِ على إِنْزَالِ القَارُورَتَيْنِ عن ظَهْرِه . ونَزْعِ المِسْبَحَتَيْنِ من قدَمَيْه ، فأخذَ يمشي إلى غرفتِه الخاصَّةِ ، بإعياءٍ وَاضِحٍ ... فلمَّا دَخلَهَا ، اتَّجَهَ نحو فِرَاشٍ أُعِدَّ لهُ . وقَبْلَ أن يَسْتَلْقِي على الفراشِ ، سَاعَدَهُ البَحَّارَةُ على نَزْعِ كِسْوَةِ الغوصِ .

هَالَنِي مَنْظَرُ عليٍّ ... فَشَهَقْتُ مُرْتَاعًا ... فَلَقَدْ كَانَ جَاحِظ العَيْنَيْنِ ، أَزْرَقَ اللَّونِ ، مُنْتَفِخَ الوَدَجَيْنِ ، نَاتِيءَ العُروقِ . يَتَنَفَّسُ بِصُعوبَةٍ بَالِغَةٍ ...

اسْتلْقَى الغَوَّاصُ على الفِرَاشِ ، بدونِ أنْ يَتَكَلَّمَ ... وبَقِيَ مُتَمَدِّدًا على فراشِه ، مُغْمَضَ العَيْنين ...

أشارَ إلَيَّ العَمُّ بُوجمعة. فَخَرَجْتُ ، كما خرجَ الحَاضِرُونَ كلُّهم ... وبقِيَ عليّ وحِيدًا لِيَسْتَعِيدَ حالَته الطَّبِيعِيَّةَ ...

قلتُ في نفسي : (صَدَقَ عليٌّ ... إنّه لَعَمَلٌ مُرْهِقٌ ، خَطِيرٌ ... ولكِنَّهُ ــ رَغْمَ ذلكَ ــ مُغْرٍ ، جذَّابٌ ... فمتى أَرَانِي أَغُوصُ مِثْلَهُ ... ؟) بقيتُ أيَّامًا طويلةً ، أُرَاقِبُ العملَ ، وأُشَارِكُ في تَسْيِيرِ السَّفِينةِ ، واسْتِعْمَالِ العدِيدِ من الآلاتِ ، وأَتَعَلَّمُ القواعدَ الأَسَاسِيَّةَ ، في الغوصِ والحقُّ أنَّ عليًّا كان حَرِيصًا على تَعْلِيمِي . فلم يَبْخَلْ عليَّ بِنُصْحٍ ولم يُخْفِ عنِّي سِرًّا ، من أسرارِ المِهْنَةِ . ذلكَ أنَّهُ قد سُرَّ باعتنائِي ، وحِفْظِي لِمَا يُلْقِيهِ عَلَيَّ ... فقد كُنْتُ أُعِيدُ عَلَيْهِ ما لَقَّنَنِي إِيَّاهُ حَرْفِيًّا ، وعن ظَهْرِ قَلْبٍ وكُنْتُ لا أَفْتَأُ أسأَلُهُ بِصَبْرٍ نَافِدٍ :

ــ متى تَسْمَحُ لِي بالغوصِ ، لأُرَافِقَكَ ، وأعينَكَ ؟ فكان جوابُه لا يَتَغَيَّرُ ، ولكنَّ ابْتِسَامَتَهُ المُشْرِقَةَ ، الَّتي لا تُفَارِقُ وجْهَه ، كانَتْ خَيْرَ مُسَلٍّ لي ، وأَحْسَنَ دَاعٍ إلى الصَّبْرِ . كان يَقُولُ لِي دَوْمًا :

ـــ صبْرًا يا بُنَيَّ ... صَبْرًا . فَٱلتَأَنِّي والصَّبْرُ شِيمَةُ البَحَّارَةِ والغَوَّاصِينَ .

أثْنَاءَ قِيَامِ عليّ بِعَمَلِهِ ، كنتُ أضْجَرُ من البقاءِ ، بِدُونِ عَمَلٍ فجعَلْتُ أنْزِلُ إلى البحرِ وأسْبَحُ بَعِيدًا ، ثمَّ أغُوصُ بِدُونِ آلاتٍ ... مُسْتَرْشِدًا بمَا تَعَلَّمْتُه من العمِّ بوجمعة ، ومِن عليٍّ نَفْسِه .

كنتُ أحملُ معي حَبْلاً ، لأعْرِفَ مِقْدَارَ ما أبْلُغُه من عُمْقٍ . ومع الدَّأْبِ المُتَوَاصِلِ أمْكَنَنِي أن أغوصَ أرْبَعِينَ مِتْرًا ، بِدُونِ أيَّةِ آلَةٍ . فلمَّا أنْبَأْتُ العَمَّ بوجمعة بذلك، قال :

ـــ أعْتَقِدُ أنَّه قدْ آنَ لكَ أنْ تَغُوصَ .

قلتُ : ولكنَّ عليًّا يُمَانِعُ بٱستِمْرَارٍ .

قال : سَوفَ لَنْ يُمَانِعَ ، بعدَ اليوم ... فهذا العُمْقُ الَّذِي بلغتَه ، دليلٌ على بَرَاعَتِك المَلْحُوظَةِ ، إذ لاَ يَصِلُ لِمثْل ما وَصَلْتَهُ ، إلاَّ مَهَرَةُ الغَوَّاصِينَ .

رَوْعَــةُ الأعْمَــاقِ

أخِيرًا ... حَلَّ اليَوْمُ الموعودُ ... وَلَبِسْتُ كِسْوَةَ الغَوْصِ ...

رَغْمَ شِدَّةِ تَلَهُّفِي ، وَعَظِيم فَرَحِي ... ومَعَ أنِّي قَدْ تَمَرَّنْتُ على الغَوْصِ ، في أعْمَاقٍ

غَيْرِ سَحِيقَةٍ ، فإنِّي ، عِنْدَمَا أتْمَمْتُ الاسْتِعْدَادَ ، ووقفتُ على حافةِ السَّفينةِ ، بجانب عليّ ، أحْسَسْتُ باضْطِرَابٍ ... وخَفَقَ قلبِي خَفَقَانًا شَدِيدًا وَغَمَرَنِي عَرَقٌ غَزِيرٌ ... وكَأنَّنِي مُقْبِلٌ على امْتِحَانٍ عَسِيرٍ .

سَبقَنِي عليٌّ . فألْقَيْتُ بِنفسِي في البَحْرِ بَعْدَهُ،وأخَذْتُ أتْبَعُهُ . وكنت أراهُ بِوضُوحٍ تامٍّ . كما أرَى الأسماكَ ، تُسْرِعُ نَحْوَنَا ، ثمَّ تَبْتَعِدُ عنا ، مَذْعُورَةً مِنَّا .

اقْتَرَبْنَا من القَاعِ ، فشَاهدتُ الصُّخورَ... يا لله ... ما أجْمَلَهَا ، ومَا أبْدَعَ ألْوَانَهَا . ومَا أرْوَعَ أشْكَالَهَا ! وما أبْهَى الأسْمَاكَ الجَمِيلَة ، المُزْدَانَة بأعْجَبِ الألْوَانِ ، تَحُومُ حَوْلَهَا وتَدُورُ بِجَانِبِهَا ، وتَدْخُلُ الفَجَوَاتِ الَّتِي بَيْنَهَا ... وَهِيَ تَتَثَنَّى ، وَتَتَلَوَّى ، فِي رَقْصٍ بَدِيعٍ ، وَحَرَكَاتٍ رَائِعَةٍ ...

رَاقَنِي مَنْظَرُ الأسْمَاكِ ، فَتَوَقَّفتُ ... وَبَقِيتُ مَسْحُورًا مَبْهُورًا ... أنْظُرُ ، ولاَ أتحرَّكُ ...

لَمْ يُخْرِجْنِي مِنْ ذُهُولِي ، سِوَى جَذْبَةٍ عَنِيفَةٍ ، من يَدِ عَلِيٍّ ... فَعُدْتُ إلى صَوَابِي . وتَبِعْتهُ . فدَارَ حَوْلَ تِلْكَ الصُّخُورِ ، فَدُرْتُ وَرَاءَهُ ...

يا للرَّوْعَةِ !! وَيَا لَلْبَهَاءِ !!

ماذَا أرَى ؟ وَهَلْ فِي يَقَظَةٍ أمْ فِي مَنَامٍ أنَا ؟



إِنَّهُ مَنْظَرٌ لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَه ، قَطُّ ... ولَنْ أَنْسَاهُ مَا دُمْتُ حَيًّا ... وَهَلْ يُنْسَى الجَمَالُ الرَّائِعُ ، وَالمَنْظَرُ الخَلاَّبُ ؟!

عَلَى مَدَى النَّظَرِ ، تَكْسُو حُمْرَةُ المَرْجَانِ ، صُخُورَ القَاعِ ... وعَلَى الشُّجَيْرَاتِ الحُمْرِ ، تَفَتَّحَتْ زُهَيْرَاتٌ بِيضٌ ، تَتَرَاقَصُ وتَتَمَايَلُ ...

مَا أَرْوَعَ الغُصَيْنَ الأَحْمَرَ ، يَعْلُوهُ تُوَيْجٌ مِنَ الزَّهْرِ الأَبْيَضِ !!

صَدَقَ العَمُّ بُوجُمْعَةَ ... فَلَيْسَ هُنَاكَ ، عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، ما يُشْبِهُ هَذَا المَنْظَرَ ، غَيْرَ أَشْجَارِ المِشْمِشِ المُزْهِرَةِ . وَلَكِنْ ... أَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثُرَيَّا ؟! فَلاَ جَمَالَ على الأَرْضِ مِثْلُ هَذَا ... وَمَا وَقَعَتْ عَيْنَايَ على أَرْوَعَ مِنْهُ ، ولا أَجْمَلَ أَبَدًا ...

كَانَ مَنْظَرًا سَاحِرًا ... انْجَذَبَ لَهُ نَاظِرِي ... فَأَذْهَلَ عَقْلِي ، وسَبَى فِكْرِي ، وَأَلْهَانِي عَنْ نَفسِي ... فَكَادَ يَقْضِي عَلَيَّ ... وَلَوْلاَ أَنَّ عليًّا كان يَعْرِفُ ، مُسَبَّقًا ما سَيَحْدُثُ لِي ، فلم يَغْفلْ عنّي ، لَكُنْتُ من الهَالِكِينَ !! جَذَبَني عليٌّ ، نحوَ صخْرَةٍ ، فَوقَها مرْجانٌ كثيرٌ . ورأيتُه يفتحُ سلَّتَهُ ، وَيُخرِجُ مِطْرَقَته ، ففعلتُ مِثله .

دَنَوْتُ من الأَشْجَارِ ، فلمَّا أَحَسَّتْ بِي ، انكَمَشَتِ الأَزْهَارُ البَيْضَاءُ ، ثمَّ اخْتَفَتْ ... ولم يبقَ أمامي سِوى الأعوادِ الحمراءِ ... لاحظتُ كَيْفَ يعملُ عليٌّ ثم حَذَوْتُ حِذْوَهُ :

ضَرَبْتُ الصَّخرَ ، تَحْتَ الشَّجرةِ ، حتَّى اقْتَلَعْتُها بِجُذُورِهَا وصَخْرِهَا ... ولمَّا كانَتْ أوَّلَ شَجَرَةٍ أتحصَّلُ عَلَيْهَا ، فَقَدْ وَضَعْتُهَا في سَلَّتِي ، بعِنَايَةٍ . وقَرَّرْتُ أنْ أحْتَفِظ بِهَا ، طِيلَةَ حَيَاتي .

كانتِ الصُّخورُ صَلْبَةً . والمِطْرَقَةُ ثَقِيلةً ، فأحْبَبْتُ أنْ أقْتَلِعَ المَرْجَانَ ، بِدُونِ صَخْرٍ ... ولكِنِّي عَدَلْتُ عنْ ذلِك ، عندما وَجَدْتُ المرجانَ أصْلَبَ جِسْمًا ، وأصْعَبَ كَسْرًا ، من الصَّخْرِ نَفْسِهِ ...

غَفَلْتُ عن الزَّمَنِ . وانْسَقْتُ وَرَاءَ سِحْرِ الصَّيْدِ ... فَصِرْتُ أقْتَلِعُ المَرْجَانَ ، بِدُونِ هَوَادَةٍ وَأمْلأُ بِهِ سَلَّتِي ... ولم أتَفَطَّنْ لِمرُورِ الوَقْتِ :

اقْتَرَبَ مِنِّي عليٌّ ... وَأشارَ إليَّ ، يَأمُرُنِي بالصُّعُودِ .

عَنَــاءُ الصُّعُــودِ

نظرتُ إلى سَاعَتِي . فإذا بنا قَدْ قَضَيْنَا ، في قَاعِ البَحْرِ عَشْرَ دَقَائِقَ ، فَقَطْ ... وكانَ عليٌّ قد ذكَر لي ، أنَّه يُمْكِنُ للغوَّاصِ أنْ يَبْقَى خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً ... فأشرْتُ إلَيه أنْ نَبْقَى خَمْسَ دَقائِقَ أُخْرَى ... ولكنَّهُ رَفَضَ بحَزْمٍ . وجَذَبَنِي بِعُنْفٍ ... فوضَعْتُ مِطْرَقَتِي في السَّلَّةِ واتَّبَعْتُه .

شَرَعَ علِّي يَصْعَدُ ، مُحَاذِيًا لِلْحَبْلِ ... الَّذي يَصِله بالسَّفِينَةِ . وقَبْلَ أن أُغَادِرَ مَكَانِي ، حَرَّكْتُ حَبْلَ سَلَّتِي ، ثمَّ أَلْقَيْتُ نَظْرَةً على سَاعَةِ الأعْمَاقِ ، فَإِذَا بنا على عُمْقِ تِسْعِينَ مِتْرًا . فأخَذْتُ أصْعَدُ ، مُقْتفِيًا أثَرَ علِيٍّ ، وَمُحَاذِيًا لِحَبْلِي .

لَم يَكُنْ الصُّعُودُ هَيِّنًا ، مثلَ الهُبُوطِ ... فقد كانَ الرّصاصُ يُثَقِّلُنَا ... وَيشُدُّنَا إلى الأعماقِ رَغْمَ أنَّ الكِسْوَةَ تَدْفَعُنَا إلى أعْلى ... توقَّف علِّي عن الصُّعُودِ . وَأمْسَكَ الحَبْلَ . وبَقِيَ واقِفًا بِجَانِبِهِ ، ففعلتُ مثلَه ، ونظرتُ إلى ساعةِ الأعْمَاقِ . فوجدتُ أنَّنا قطَعْنَا أرْبَعِينَ مِتْرًا .

بَقِينَا سَاكِنَيْنِ ، حيْثُ كُنَّا ، خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً . وكلُّ منَّا يُمْسِكُ الحبلَ الَّذي بجانِبه . ثمَّ اسْتَأْنَفْنَا الصُّعودَ . ولكنَّ مُعَلِّمِي عَادَ إلى التوقُّف ، بعد خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا . فوقفتُ أنا أيضًا . واسْتَرَحْنَا وَقْتًا مُمَاثِلاً للوقتِ السَّابِق. وعُدْنَا نَصْعَدُ مرَّةً ثالثةً . فلم نَتَجَاوزِ الخَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا أيضا وعُدْنَا إلى السُّكونِ والرَّاحةِ . استعدادًا لِقَطعِ الأمتارَ العشرينَ الباقيةِ .

الأمتارُ البَاقِيَةُ أمْرُهَا أعْسَرُ ... ذلكَ أنَّنَا لا نَقْطَعُهَا دفْعَةً واحِدَةً ... ولا نَبْرُزُ على سَطْحِ المَاءِ ، مُبَاشَرَةً . صَعِدْنَا ثَلاثَةَ أمْتَارٍ . ثمَّ تَوَقَّفْنَا ... وَعُدْنَا إلَى الصُّعُودِ ، ثم التَّوقُّف كلَّمَا قَطَعْنَا ثلاثَةَ أمْتارٍ . ولكِنَّنَا لا نَسْتَرِيحُ طَويلاً إلاَّ في الأمتَارِ الأخِيرَةِ .

وأخِيرًا ... بَرَزَتْ رُؤُوسُنَا فَوْقَ المَاءِ ... بَعْدَ أنْ قَضَيْنَا سَاعَةً كَامِلَةً ، في الصُّعُودِ .

امتَدَّتْ أيْدِي البَحَّارَةِ إلَيْنا ، فَجَذَبُونَا إلى السَّفِينَةِ . ثمَّ أعَانُونَنا على إنْزَالِ القَوارِيرِ وَقَادُونَا إلى السُّرُرِ الَّتي أُعِدَّتْ لَنَا ...

رَغْمَ التَّعَبِ الَّذِي أحْسَسْتُه ، والضِّيقِ الَّذي شَعُرْتُ بِهِ .. فإنِّي كُنْتُ سَعِيدًا جدًّا ... ولنْ يُدْرِكَ مَدَى سَعَادَتِي ، إلاَّ مَنْ تَمَتَّعَ بِرُؤْيَةِ أعْمَاقِ البَحْرِ مِثْلي .

إنَّهُ لَمَشْهَدٌ ، لن يَبْرَحَ خَيَالِي ، مَا حَيِيتُ !! ولا يُمْكِنُنِي وَصْفُهُ ، مَهْمَا أجْهَدْتُ نَفسِي مِنْهُ وطَاوَعَنِي قَلْبِي ...

تَناولتُ مع عليّ طَعَامًا دَسِمًا بعد أن ٱسْتَرَحْنَا وَقْتًا كَافِيًا ، رُدَّتْ إلَيْنا فِيه قُوَانَا . وأثْنَاءَ تَنَاوُلِنَا الطَّعَامَ ، شَكَرَنِي عليٌّ . ولكنَّه حذَّرَنِي كثيرًا ، من الانْشِغَالِ بِجَمَالِ المَنَاظِرِ الَّتي تَبْدُو لِعَيْنَيَّ في أعماقِ البحرِ . وقال لي عَنْ يَقينٍ كاملٍ ، وتَجْرِبَةٍ طَوِيلَةٍ : إذا انْسَاقَ الغَوَّاصُ وَرَاءَ عَوَاطِفِهِ ، وانْشَغَلَ بِٱلْمَنَاظِرِ الجَمِيلَةِ الَّتي يَرَاهَا ، فَقَدْ هَلَكَ .

الصَّيْدُ بالكَرْكَارَةِ .

وَمَرَّتِ الأعْوَامُ ...

وكنتُ أزْدَادُ خِبْرَةً ومَهَارَةً، كلَّما مرَّ يومٌ جدِيدٌ . بل إنِّي أصبحتُ لا أقِلُّ كَفَاءَةً

عنْ مُعَلِّمِي نفسِه . وذلك ما جعَلَه يَطْمئِنُّ إلَيَّ . ويُلْقِي عليَّ أعْبَاءَ الصَّيْدِ ، وإدارةِ السَّفينةِ وقِيَادَتِهَا أيضا ... أثْنَاءَ غِيَابِهِ ، وحتَّى عِنْدَ حُضُورِهِ . والحقُّ أنَّه قد بدأ يتعبُ إثْرَ كلِّ غَوْصَةٍ ... فَقَلَّلَ من العَمَلِ ، مُكْتَفِيًا بالمُراقَبَةِ ، والإِرْشَادِ . وتَعْلِيمِ الغَوَّاصِينَ الجُدُدِ أُصُولَ الغَوْصِ . وَلَمْ يَكُنْ يَغُوصُ إلاَّ حَيْثُ يَشْتَدُّ الطَّلَبُ ، على المرجانِ . أمَّا أنا فقد كنتُ لِشَبَابِي ومَتَانَةِ بُنْيَتِي ، أسْتَعِيدُ قُوَّتِي بِسُرْعَةٍ . ولكِنِّي لم أكنْ أفعَلُ ذلك إلاَّ بعدَ أنْ أبْقَى مُسْتَرِيحًا ، بعدَ الغَوْصَةِ الأولى ، ستَّ سَاعَاتٍ كاملةً ... وكان طَعَامِي في هذِه الحَالَةِ ، يأْتِينِي إلى فِرَاشِي . ويكُونُ طَعَامًا جَيِّدًا ، غَنِيًّا بالفِيتَامِينَاتِ سَهْلَ الهَضْمِ . لا يَحْوِي المَوادَّ الَّتي تُكَوِّنُ غازات بالْمَعِدَةِ ... ذلك أنَّ الغازات تقلقُ الغواصَ وتضعِفُ قدرتهِ علَى الصبرِ وعلَى تحمُّلِ ضغط ماء البحر .

كان دخلِي كبيرًا لاجتهادِي من جهة ولارتفاع أسعارِ المرجانِ من جهة أخرَى وذلكَ ما جَعَلَنِي ثريًّا وصارَ في حوْزَتِي مالٌ وافرٌ فكنتُ أنفق على نفسِي وعلى العمّ بُوجمعة دونَ تقتير أو إسراف وكذلكَ كنت أبعث لِوالدتِي بمبالغ كبيرة وأحرِّضهَا أثناءَ زيارتِي لهَا وفي كلّ رسائِلِي على أنْ تُنْفِقَ علَى نَفسِهَا بِسعَةٍ . وأن لا تَحْرِمَ نَفْسَهَا من مأكَلٍ تَشْتَهِيهِ أوْ مَلْبَسٍ يَرُوقُهَا .

لم نَكُنْ نَصْطَادُ المرجانَ في الرَّبيعِ ، لأنَّهُ الفصلُ الَّذِي تنبثق فيه الحياةُ وَتَتَلاَقَحُ الكائِنَاتُ وتتوالَدُ . نَباتَاتٌ كانَتْ أوْ حَيَوَانَاتٌ بَرِيَّةٌ كَانَتْ أوْ بَحْرِيَّةٌ ، والمَرْجَانُ لا يَشِذُّ

عن غَيْرِهِ من المَخْلُوقَاتِ ــ حيْثُ أنه يَتَوَالَدُ في الرَّبيعِ فَنَتْرُكه لِيَتِمَّ دَوْرَتَهُ التَّناسُلِيَّة ... أمَّا كَيْفَ يَتَوالَدُ فذلِك ما أجْهَلُه أنَا نَفْسِي ، لِحَدِّ الآنَ ، بَيْدَ أنِّي سأَعْرِفُهُ حَتْمًا . وستَعْرِفُهُ مَعِي طَبْعًا .

أمَّا فِي غَيْرِهِ من الفُصُولِ ، فَلاَ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّيْدِ ، غَيْرَ رَدَاءَةِ الطَّقْسِ . واضْطِرَابِ البَحْرِ . فَنسْتَرِيحُ مُضْطَرِّينَ ، لأنَّنَا لا نُبْصرُ شَيْئًا فِي المياهِ الكدرة ... أوْ نَصْطَادُ بالِكَرْكارَةِ .

الكَرْكَارَةُ شَبَكَةٌ ... نُنْزِلُهَا إلى قَاعِ البَحْرِ ، فِي أعْمَاقٍ سَحِيقَةٍ ، لا نَقْدِرُ على الوُصُولِ إلَيْهَا بِالغَوْصِ ...

عندمَا تَبْلُغُ الشَّبَكَةُ قَاعَ البَحْرِ ، نَسِيرُ بالسَّفِينَةِ ونحنُ نَسْحَبُ الشَّبَكَةَ ، ونَبْقَى فِي جِيئَةٍ وَذَهَابٍ . وَغُدُوٍّ وَرَوَاحٍ ، حتَّى نِهَايَةِ الوقتِ المُقَرَّرِ للصَّيْدِ ، فَنَرْفَعُ الشَّبَكَةَ ... وَعَلَى ظَهْرِ السَّفِينة نَنْشُرُهَا . وَنَسْتَخْلِصُ من خُيُوطِهَا المَرْجَانَ الَّذِي عَلِقَ بِهَا . نحْنُ لا نَلْجَأُ لِلصَّيْدِ بالكَرْكَارَةِ إلاَّ مُكْرَهِينَ ... ذلِكَ أنَّ نَتِيجَةَ الصَّيْدِ بِهَا غَيْرُ مَضْمُونَةٍ . فكثيرًا ما أخْرَجْنَاهَا وهيَ فَارِغَةٌ . وفَوْقَ ذلِكَ فإنَّ الشَّبَكَةَ تُكَسِّرُ أشْجَارَ المرجانِ ، فَتَخْرُجُ مشَوَّهَةً لا جَمَالَ فِيهَا . لأنَّ أُصُولَهَا تَبْقَى عَالِقَةً بالصُّخُورِ . ولكِنَّهَا تَأْتِينَا بِعَجَائِبَ من حَيَوَانَاتِ الأعْمَاقِ ، فمِنْ أصْدَافٍ رَائِعَةِ الجَمَالِ ، إلَى أسْمَاكٍ غَرِيبَةِ اللَّوْنِ والطَّعْمِ . وهَكَذَا كُنَّا نَنْعَمُ بلَذِيذِ السَّمَكِ ، إنْ لم نَفُزْ بِثَمِينِ المَرْجَانِ .

وعَثَرتُ على المَرْجَانِ الأبْيَضِ !

اقْتَلَعْتُ ذَاتَ رَبِيعٍ ، شَجَرَةَ مَرْجَانٍ . فلَمَّا حَرَّكْتُهَا لأُزِيلَ عَنْهَا فُتَاتَ الصَّخْرِ تَنَاثَرَتْ مِنْهَا نُقَطٌ بَيْضَاءُ . مِثْلُ اللَّبَنِ . وأخَذَتْ تَنْحَدِرُ نحْوَ الصُّخُورِ . وآسْتَمَرَّتْ تَهْبِطُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فوْقَ صخرَةٍ . فلَمْ أهْتَمَّ بِهَا كثيرًا . آنَذَاكَ ، ولكِنِّي تَذَكَّرْتُهَا ، عندَمَا خرجْتُ . فسألتُ عَنْهَا عَلِيًّا : فقَالَ لِي :

— إنَّهَا اللِّقَاحُ ، الَّذِي يُخْلَقُ مِنْهُ المَرْجَانُ الجديدُ ...

قلتُ : ولكِنِّي لمْ أُشَاهِدْه ، قَبْلَ اليَوْمِ ، رَغْمَ كَثْرَةِ الأشْجَارِ الَّتي اقْتَلَعْتُهَا .

قالَ : ذلِكَ لأنَّك لمُ تُحَرِكِ الأشْجَارَ . ولو فَعَلْتَ لَرَأيْتَه منْذُ زمنٍ بعيدٍ .

قلتُ : إذَنْ ... فالصَّيْدُ بالكَرْكَارَةِ أصْلَحُ ؟

قالَ : أكِيدٌ ذلكَ ... ولكِنْ من هَذِهِ النَّاحِيَةِ فَقَطْ .

كُنْتُ أبْحَثُ عنِ المَرْجَانِ ، ذاتَ مَرَّةٍ ، في مكانٍ جديدٍ ، فَعَثَرْتُ على شُجَيْرَاتٍ لمْ تُعْجِبْنِي ، لِصِغَرِهَا . فتَرَكْتُهَا ، وَتَوَغَّلْتُ بيْنَ الصُّخُورِ ... فَرَأَيْتُهَا !!؟

كانتْ بعيدةً . ولكِنَّ بَيَاضَهَا جَذَبَ نَظَرِي ... رَغْمَ بُعْدِهَا عَنِّي .

فَرِحْتُ بِهَا . فَتَقَدَّمْتُ نَحْوَهَا . وبِحَذَرٍ اقْتَلَعْتُهَا . فَلَمَّا أَمْسَكْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ ، وقَرَّبْتُهَا مِن عَيْنَيَّ وَجَدْتُ بَيَاضَهَا غَيْرَ نَاصِعٍ ، إِذْ تَعْلُوهُ غُبْرَةٌ ! فَلَمْ أُعِرِ ٱلأَمْرَ اهْتِمَامًا كَبِيرًا . وَوَضَعْتُهَا في السلَّةِ باعْتِنَاءٍ . وَرَغْمَ حَذَرِي انْقَصَفَتْ أَغْصَانُهَا . وَتَحَطَّمَ جِذْعُهَا . فتركتُهَا وَشَأْنَهَا ، وعدتُ إِلَى الصَّيْدِ . فلمَّا انْتَهَيْتُ ، أَبْقَيْتُ السلَّةَ مَعِي . وأخرجتُهَا فِي يَدِي . فلمَّا صرْتُ على ظَهْرِ السَّفينةِ ، مَدَدْتُهَا لِلعمِّ بوجمعة من غيرِ أَنْ أَتَكَلَّمَ . ولكنِّي أَشَرْتُ إِليهِ ، كَيْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا . فأخذَهَا من يدِي ، بدُونِ أَيِّ اهْتِمامٍ !؟

بعْدَ أن اسْتَرَحْتُ ، وتناولتُ طعامي خرجتُ للعمِّ بوجمعة . فسأَلتُهُ :

ــ أَمَسْرُورٌ أَنْتَ بالشَّجرةِ البيضاءِ ؟

ــ إِنَّهَا بَيْضَاءُ حَقًّا ... ولكِنْ لاَ نَفْعَ منهَا .

قلتُ مُسْتَغْرِبًا :

ــ ولِمَاذَا ؟ أَفِيهَا عَيْبٌ ؟

قالَ : لا عَيْبَ فِيهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا مَيِّتَةٌ !!

قلتُ : وبماذَا عَرَفْتَ موتَهَا ؟

قالَ : انْظُرْ إِليهَا : أَلَسْتَ تَرَاهَا بَاهِتَةَ اللَّونِ ، ثمَّ إِنَّها نَخِرَةٌ !! وَسَطُهَا أَجْوَفُ . ولذلِكَ تَكَسَّرَتْ بينَ يَدَيْكَ بِسُهُولَةٍ .

قلتُ : الحَقُّ معكَ ... ولكِنِّي لم أُبْصِرْ شَجَرَةً مَيِّتَةً ، من قبلُ . ولذلك لم أعرِفْهَا .

قالَ : أنَا أشْكُرُكَ ، لِحِرْصِكَ على البَحْثِ عن المرجانِ الأبْيَضِ ... ! وَأُوصِيكَ إِنْ وجدْتَ شجرَةً بَيْضَاءَ ، أنْ تَتَأكَّدَ من مكانِهَا ، وَتُعْلِمَنِي بهِ .

قلتُ : ولِمَاذَا ؟ لَعَلَّكَ تَنوِي أنْ تَقْتَلِعَهَا بِنَفْسِكَ ؟

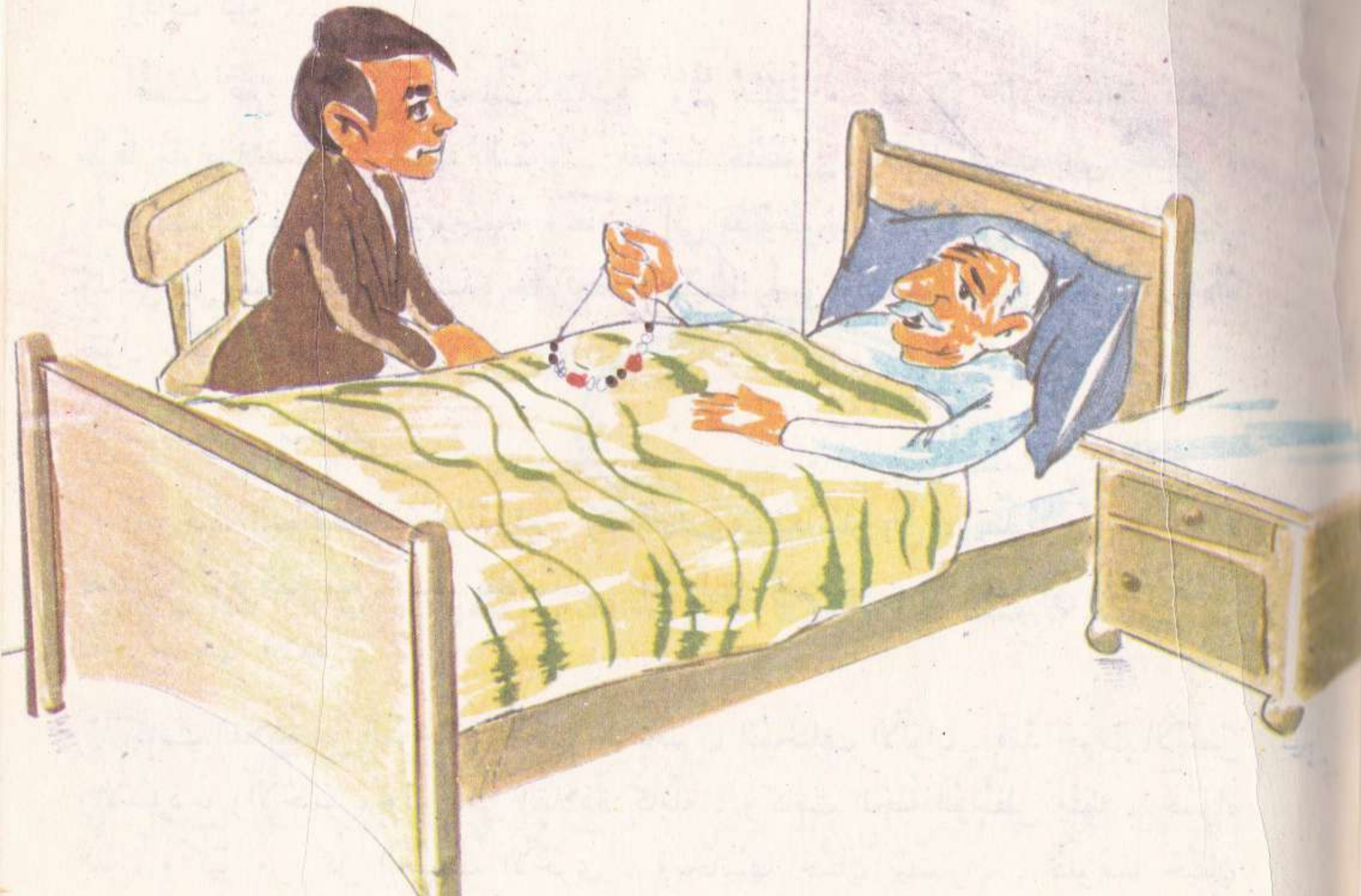
قالَ : أصَبْتَ .

قلتُ : كُنْ مَطْمَئِنًّا .

وكانَ بَعْدَ ذلِكَ يَسْأَلُنِي يَوْمِيًّا . ولكِنْ لَمْ يَتَّفِقْ لِي أنْ عَثَرْتُ علَى شَجَرَةٍ بَيْضَاءَ وبَقِيَ العمُّ بوجمعة يَتَرَقَّبُ وبَقِيتُ أبْحَثُ .

سِرُّ العمِّ بوجمعة

مَرِضَ العمُّ بوجمعة . فأتيتُ لهُ بَطَبِيب . فلم يَنْفَعْهُ شَيْءٌ من دَوَائِهِ . فَجِئتُه بِطَبِيبٍ ثَانٍ . فلمْ تُغْنِ أدْوِيَتُهُ أيْضًا . وأخَذَتْ صِحَّتُهُ تَتَدَهْوَرِ وَحالَتُه تَسُوءُ يَوْمًا بعْدَ يَوْمٍ . وَحَاوَلْتُ حَمْلَهُ لِلمُسْتَشْفَى ، ولكِنَّهُ رَفَضَ ، بِحَزْمٍ وإصْرَارٍ . وَرَغْمَ إِلْحَاحِي وَإِلْحَاحِ أصْدِقَائِهِ .



انْقَطَعْتُ عنِ الغَوْصِ ، لِلْعِنَايَةِ بالعمِّ بوجمعة ، وبَقِيتُ بِجَانِبِهِ ، لتَمْرِيضِهِ وَقضَاءِ شُؤُونِهِ . فكُنْتُ أَسْهَرُ اللَّيَالِي الطِّوال أَرْعَاهُ وأُلَبِّي طَلَبَاته .

وذَاتَ لَيْلَةٍ ...

أغفَيْتُ علَى الكُرْسِيِّ بجَانِبِ فِرَاشِهِ . ولَمْ أَسْتَفِقْ من نُعَاسِي إلاَّ عِنْدَمَا سَمِعْتُ طَرْقًا مُتَوَاصِلاً علَى حَدِيدِ السَّرِيرِ . فَقَفَزْتُ مذْعُورًا . لائِمًا نَفْسِي على غَفْلَتِي . وأسْرَعْتُ إِلَى فِرَاشِ ٱلْعَمِّ بُوجمعة . فَأَشَارَ إِلَيَّ فَدَنَوْتُ مِنْهُ . فرأَيْتُ شَفَتَيْهِ تَتَحَرَّكَانِ . وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَع صَوْته ، لِشدَّةِ خُفُوتِه . فَأَحْنَيْتُ رَأْسِي وأَلْصَقْتُ أُذُنِي بِشفَتَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ وَاهِنٍ :

ـــ أَعْطِنِي مِحْفَظَتِي .

أخْرَجْتُ المِحْفَظَةَ مِنْ صُنْدُوقِهِ . وَقدَّمْتُهَا إِلَيْهِ فأَشَارَ إِلَيَّ ، يَطْلُبُ منِّي فَتْحَهَا . فَفَعَلْتُ . وقَرَّبْتُهَا مِنْهُ . فَمَدَّ يَدَهُ ، الَّتِي عَادَ إِلَيهَا ارْتِعَاشُهَا . وأَدْخَلَهَا فِي المِحْفَظَةِ . فأَخْرَجَ مِنْهَا قِلادَةً .

كانتِ القِلادَةُ منَ المَرْجَانِ ، الكَبِيرِ الحَجْمِ ، المُخْتَلِفِ الأَلْوَانِ . فَقَدْ حَوَتِ الأَبْيَضَ والأَسْوَدَ ، والأَحْمَرَ ، ولم تَكُنِ القِلاَدَةُ كامِلَةً . وكانتِ الحَبَّةُ الوُسْطَى مِنْهَا ، حَمْرَاءَ اللَّوْنِ وأَكْبَرَ من كلِّ الحُبُوبِ الأُخْرَى . وَبِجَانِبَيْهَا حَبَّتَانِ بَيْضَاوَانِ . تَتْلُوهُمَا حَبَّتَانِ

سَوْدَاوَانِ فِي حَجْمِهِمَا . وَتَتوالَى الحُبُوبُ ، مُرَتَّبَةً : أَحْمَرُ . فِي أَثَرِهِ أَبْيَضُ ، يَتْلُوهُ أَسْوَدُ .

أُعْجِبْتُ بِالقِلاَدَةِ ، فَبَقِيتُ أَتَأَمَّلُهَا ... ولَوْلاَ أَنَّ العَمَّ بوجمعة أَشَارَ إِلَيَّ ، لَمَا تركتُها من يَدَي ، ولما ٱلتفتُّ لِغَيْرِهَا .

قَرَّبْتُ رَأْسِي من فَمِ العَمِّ بُوجمعة فإِذَا هُوَ يَقُولُ :

ــ القِلاَدَةُ هِيَ سِرِّي ، الَّذِي أَنْبَأْتُكَ بِهِ ، ولم أُوَضِّحْهُ لَكَ ... لَقد وَرِثْتُهَا عَنْ أَبِي وأَجْدَادِي ... وكانَ هَدَفِي ، فِي حَيَاتِي ، أَنْ أُحَقِّقَ وَصِيَّةَ أَبِي بِأَنْ أُضِيفَ إِلَيْهَا ، مَا يُكْمِلُهَا من المَرْجَانِ ، حَسْبَ تَرْتِيبِ الأَلوانِ ، حتَّى تَبْلُغَ حَبَّاتُهَا إِحْدَى وَثَلاَثِينَ حبَّةً ...

سكتَ العمُّ بوجمعة ، إِعْيَاءً ... فلمَّا استَرَدَّ أَنْفَاسَهُ ، قالَ :

ــ لَوْ أَنَّنِي أَكْمَلْتُ حَبَّاتِهَا ، لَعِشْتُ في صحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وتَنَعَّمْتُ بِثَرَاءٍ عَرِيضٍ . وَتَمَتَّعْتُ بِهَنَاءٍ كَامِلٍ .

زَفَرَ العَمُّ بُوجمعة زَفْرَةً ، خِلْتُ أَنَّ رُوحَهُ سَتَخْرُج مَعَهَا ... ثمَّ قالَ بِصوتٍ وَاهِنٍ جِدًّا :

ــ آهٍ من المَرَضِ ... لَقَدْ حَالَ بَيْنِي وبَيْنَ أُمْنِيَتِي . أَشْعُرُ بِدُنُوِّ أَجلِي ... والآنَ وَقَدْ دنَا أَجلِي ، ولَيْسَ لِي ولدٌ يَرثنِي . فأَنْتَ وَلَدِي ــ أَنتَ الَّذِي تَسْتَحِقُّ أَنْ

تَرِثَهَا مِنِّي ... خُذْهَا ... وأضِف إِلَيْهَا مَا يَنْقُصُهَا ... وأمَلِي أنْ تُوَفَّقَ أنْتَ ، حَيْثُ خِبْتُ أنَا ...

مَدَّ العَمُّ بُوجمعة يَدَه . فَضَغَط عَلى يَدِي ... فَانْحَنَيْتُ عَلَيْهِ ، وَقَبَّلْتُه فِي جَبِينِه ... وَلَمْ أشْعُرْ بِعَبَرَاتِي إلاَّ وَهْيَ تَنْحَدِرُ فَوْقَ جَبْهَتِهِ ... فَرَفَعْتُ رَأْسِي لأمْسَح الدُّموعَ . فَإذَا بِي أُفَاجَأُ بِأنَّ العَمَّ بُوجمعة قَدْ مَاتَ !

شَجَرَةٌ بَيْضَاءُ ... وَلَكِن ...

قَضَيْتُ أيَّامًا عَدِيدَةً ، بَعْدَ وَفَاةِ العَمِّ بُوجُمعة وحُزْنِي عَلَيْهِ عَظِيمُ ، وَلَوْعَتِي أشَدُّ وأعْظَمُ فأهْمَلْتُ العَمَلَ ، وَتَملَّكَنِي انْقِبَاضٌ ، جَعَلَنِي أنْفُرُ منَ النَّاسِ ، وأبْتَعِدُ عَنْهم .

وَمرَّتِ الأيَّامُ ... واللَّيَالِي ... فأخَذَ حُزْنِي يَنْقُصُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَجَعَلَ خَيالُ العَمِّ بُوجمعة يَغيبُ عَنْ نَاظِرِي ، بَعْدَ أنْ كَانَ لاَ يُفَارِقُنِي ، فِي لَيْلِي أوْ نَهارِي .

عُدْتُ إلَى عَمَلِي فصَرَفْتُ فِي الْغَوْصِ كُلَّ جُهْدِي . وَشَغَلَنِي الانْكِبَابُ على العَمَلِ ، والانْصِرَاف إلَيْهِ ، انْصِرَافًا كَامِلاً ، فَكِدْتُ أنْسَى العَمَّ بُوجمعة ولَمْ يَعُدْ يُؤَثِّرُ عَلَيَّ فَقْدُهُ إلاَّ قَلِيلاً ! فَمَا أجَلَّ حِكمةَ النِّسْيَانِ : ومَا أعْجَبَ قَلْبَ الإنْسَانِ ؟ انْقَضَتْ شُهُورٌ . فَأعْوَامٌ . وأنَا أُفَتِّشُ عنِ المَرْجَانِ الأبْيَضِ ، ولاَ أعْثُر عَلَيْهِ . وقَدْ كَانَ اهْتِمامِي بِهِ ، يَشْغَلُنِي

في كَثِيرٍ مِنَ الأحْيَانِ عَنْ عَمَلِي ، فَأَتْرُكُ مَا أَمَامِي من مَرْجَانٍ أحْمَرَ ، وأذْهَبُ للبَحْثِ عَنْ شَجَرَةٍ بَيْضَاءَ ، وَيَنْتَهِي الوَقْتُ ، بِدُونِ أنْ أظْفَرَ بِبُغْيَتِي ، فَأضْطَرُّ لِلصُّعُودِ ، فَارِغَ اليَدَيْنِ ، والسَّلَّةِ ! عَلِمْتُ ذَاتَ يَوْمٍ ، بِأَنَّ أحَدَ الغَوَّاصِينَ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ قَرِيبًا من بَلْدَةِ (عِنَّابَهْ) الجَزَائِرِيَّةِ ، قَدْ أخْرَجَ شَجَرَةً من المرجَانِ الأبْيَضِ... فَذَهَبْتُ إليهِ بَحْرًا . واشْتَرَيْتُ مِنْهُ الشَّجَرَةَ ، بعْدَ أن دَفَعْتُ له أضْعَافَ ثَمَنِهَا ... وَعُدْتُ بِهَا ، وأنَا جِدُّ مُغْتَبِط بالحُصُولِ عَلَيْهَا .

اتَّفَقْتُ مَعَ أمْهَرِ صَانِعٍ في البلدةِ ، فَنَحَتَ لِي أرْبَعَ حبَّاتٍ مِنْهَا ، في الحَجْمِ المُسَاوِي لِحَبَّاتِ القِلاَدَةِ .

أخَذْتُ حَبَّتَيْن ، منَ الأرْبَعِ ، فأضَفْتُهُمَا للقِلاَدَةِ . ثُمَّ أمْسَكْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ وأنَا أكَادُ أطِيرُ لِفَرحِي ، وَالدُّنْيَا لاَ تَسعُنِي لِفَرْطِ ابْتِهَاجِي وَغِبْطَتِي ...

وَتَذَكَّرْتُ العمَّ بُوجمعة ... فَأسِفْتُ لأنَّه لم يَرَ حُلْمَهُ يَتَحَقَّقُ ! وقلتُ ، وأنَا ألْتَفِتُ نحوَ سَرِيرِه ، الَّذِي بَقِيَ في مَكانِه :

ــ إهْنَأْ ، فِي نَوْمِكَ الأبدِيِّ ، يا عمِّ بُوجمعة . فَهَا هُوَ ذَا المَرْجَانُ الأبْيَضُ ، فِي حَوْزَتِي . وسَوْفَ لنْ أدَّخِرَ وُسْعًا. فِي الحُصُولِ على المَرْجَانِ الأسْوَدِ أيْضًا ... لَيْتَكَ كنتَ بِجَانِبِي ، لِتَبْتَهِجَ مَعِي !!

نِمْتُ ، وقَدْ تَوَشَّحَتِ الدُّنْيَا أَمَامَ نَاظِرِي ، بِلَوْنٍ وَرْدِيٍّ بَهِيجٍ ... وآنْفَسَحَتْ لِي آمَالٌ عِرَاضٌ جعَلَتْنِي أَبْنِي قُصُورًا من الأَحْلاَمِ وَرَفَعَتْنِي إِلى قِمَّةِ السَّعَادَةِ ... لَمْ أَهْنَأْ بِنَوْمِي طَوِيلاً ... فقَدْ رأيتُ العمَّ بُوجمعة ، فِي مَنَامِي وهو يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ كانَ غَاضِبًا ، أَشَدَّ الغَضَبِ . فَقُلْتُ لهُ :

ــ ما لِي أَرَاكَ تَكَادُ تَتَميَّزُ غَيْظًا !؟

قال بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ ، لِشِدَّةِ حَنقِهِ وانْفِعَالِهِ :

ــ ذَلكَ لأَنَّك تَسْلُكُ سُبُلاً مُعْوَجَّةً ، لتَحْقِيق بُغْيَتِك !!

قلتُ بلَهْجَةٍ كُلُّهَا صِدْقٌ :

ــ ما أَظُنُّنِي فعلتُ سُوءًا . وما آعْتَدَيْتُ على أَحَدٍ ... وأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ مِنِّي جَيِّدًا ... فَمَا أَلجأَكَ إِلى كلِّ هَذَا الغَضَبِ ؟

قَالَ بلهجةٍ أَخَفَّ حدَّةً ، من ذِي قبْلُ :

ــ يَجِبُ أن تُخْرِجَ المَرْجَانَ الأَبْيَضَ من البَحْرِ بنفسِك ... أَلاَ تَذْكُرُ أَنِّي كنتُ أَطْلُبُ منكَ أن تُعَيِّنَ لِي مكانَ الشَّجرةِ ، وأَنْ لا تقْتَلِعَهَا أنتَ . قلتُ : قد كانَ ذلِكَ ، وأنا أذكرُ ذلِك ولنْ أنْسَاه أَبدًا . قالَ : السرُّ هناكَ ... يا بُنَيَّ ... لا تُضِفْ هذَا المَرْجَانَ

الَّذِي اشْتَرَيْتَه إلى القِلاَدَةِ ، وإلاَّ فقدْتَ سرَّهَا ... يا بُنَيَّ فَتِّشْ بِحَزْمٍ تَجِدْ ... أنتَ على وَشَكِ العُثورِ ... فلاَ تبتئِسْ ولا تَيْأَسْ .

غابَ عنِّي طَيْفُ العمِّ بوجمعةَ ... فانْتَبَهْتُ مَذْعُورًا ... وأسِفْتُ لِمَا أضَعْتُ من مالٍ ثمَّ عَزَمْتُ على أنْ أصْنَعَ من الشَّجرةِ البيضاءِ قِلاَدَةً أُخْرَى ، أُهدِيهَا لأمِّي .

وَأخِيرًا ... وَجَدْتُهَا

كَانَ لِمَا قَالَهُ العَمُّ بُوجُمْعَة لِي ، في مَنَامِي ، شديدُ الأثَرِ عَلَيَّ . فاسْتَأْنَفْتُ البَحْثَ ... وَجَدَدْتُ في التَّفْتِيشِ ... واضْطَرَّنِي ذلكَ إلى أنْ أقْطَعَ مَسَافَاتٍ شَاسِعَةً ، بَعيدًا عنِ البَلْدَةِ ، باحِثًا مُنَقِّبًا ...

وأخِيرًا ... رَأَيْتُهَا !!

إنَّهَا بَيْضَاءُ نَاصِعَةٌ ، لا سُوءَ فيهَا ... ولَكِنَّهَا كَانَتْ تَنْبُتُ مُنَكَّسَةً ، داخِلَ كَهْفٍ ... فانْدَفَعْتُ نَحْوَهَا ... ثمَّ أحْجَمْتُ عنْ ذلكَ ، لأنَّ فَتْرَةَ الغَوْصِ ، الَّتِي أحْتَمِلُهَا ، قدِ انْتَهَتْ ، رَبَطْتُ حَبْلَ الصُّعُودِ ، فِي حَجَرٍ ، أمَامَ الكَهْفِ . ثمَّ صَعِدْتُ ، وَلِشِدَّةِ فَرَحِي ، لمْ أحْتَرِمْ ، في صُعُودِي ، أوْقَاتَ الرَّاحَةِ !! وخرجْتُ قبلَ الوقتِ ، الوَاجِبِ عليَّ قَضَاؤُهُ

في الصُّعُودِ ... فلمَّا وصلتُ فوقَ السَّفينَةِ ، أُغْمِيَ عَلَيَّ !! أسْرَعَ البَحَّارَةُ ، فَوَضَعُونِي داخِلَ غُرْفَةٍ خَاصَّةٍ ، مُعَدَّةٍ لِمِثْلِ ما حَدَثَ لِي ...

اشْتَغَلَتِ الأجْهِزَةُ ، فَتَسَلَّطَ عَلى بَدَنِي ضَغْطٌ يُمَاثِلُ الضَّغْطَ الَّذي كُنْتُ فِيه وأنا في الأعْمَاقِ . وأبْقونِي في الحُجْرَةِ ساعَةً كَامِلةً فآسْتَعَادَ دَمِي صَفَاءهُ . وخَرَجَتْ منهُ فَقَاقِيعُ الغَازِ الَّتي تَكَوَّنَتْ بِهِ فَزَالَ عَنِّي الخَطَرُ الَّذي كَانَ يَتَهَدَّدُنِي فَأخْرَجُونِي وأنَا فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَها ، إعْيَاءً وَتَعَبًا ... وأوْجَاعًا .

لَمْ أُغَادِرْ فِراشِي أُسْبُوعًا كامِلاً . كانَ عليّ يَزُورُني أثْناءَهُ يَوْمِيًّا . ومن أوَّلِ يَوْمٍ لاَمَنِي بشِدَّةٍ . وقالَ :

ـ كَيْفَ تُخَاطِرُ بِنَفْسِكَ ... وتُلْقِي بهَا إلى التَّهْلُكَةِ ؟ أمَا تَذْكُرُ كَيْفَ مَاتَ الغَوَّاصُ الَّذي خَرَجَ رَأْسًا ؟ أمَا تَتَذَكَّرُ الشَّلَلَ الَّذي أُصِيبَ بِهِ زَمِيلُكَ ، الَّذي لَمْ يَحْتَرِمِ الوَقْتَ مِثْلَك ؟ كنتُ أظُنّك أحْكَمَ من أنْ تُجَازِفَ بنَفْسِكَ . فمَا دَعَاكَ لِذَلِكَ ؟

فآدَّعَيْتُ النِّسْيَانَ ، والغَفْلَةَ . ولم أُخْبِرْهُ بحَقِيقَةِ الأمْرِ . شُفيتُ من مَرَضِي . ونَجَوْتُ من خطَرِ البَقَاءِ مَشْلُولاً ، طِيلَةَ الحياةِ . فحَمَدْتُ الله ، على ذلكَ .

اسْتَعَدْتُ عَافِيَتِي وقُدْرَتِي عَلى الغَوْصِ فَعُدْتُ لِلْمَكَانِ الَّذي وجَدْتُ بِهِ الشَّجَرة البَيْضَاءَ . ولكنِّي لم أعْرِفْهُ بالضَّبْطِ لأنِّي لم أرْبط بالحَبْلِ كُرَةً حَمْرَاءَ ، كما نَفْعَلُ عَادَةً ،

ولم يَهْتَمَّ بِهِ البحَّارةُ ، إذْ شَغَلَهُمْ ما حدَثَ لِي عنْ كلِّ شيءٍ ، فَسَارُوا بالسَّفِينَةِ من غيرِ أنْ يُفكِّرُوا فِي الحبْلِ فبَقِيَتْ تَسْحَبُهُ ، هُوَ والحَجَرَ الَّذِي ربطَ به حتَّى الشَاطِىءَ .

لم أيْأَسْ ، فَقَدْ كنتُ أعْرِفُ المَنْطَقَةَ . ومنْ ثمَّ فقدْ قضَيْتُ أيَّامًا أبْحَثُ بِجِدّ ولا هَمَّ لي غيرُ الشَّجرةِ البيضاءَ وبَعْدَ عَنَاءٍ طويلٍ رأيتُ الكَهْفَ ، ووجدتُ الشَّجرةَ باقِيةً هناك .

اقْتَلعْتُها ... وصَعِدْتُ بِهَا ... وكانت فَرْحَتِي بالحصولِ علَيْها خَيْرَ عَزَاءٍ لِي ، عَلى ما أصابَنِي . وأحْسَنَ جَزَاءٍ أجَازَى بِهِ، على صَبْرِي... وحقًّا إِنَّهَا تَسْتَحِقُّ مَا بَذَلْتُه فيها من جُهْدٍ . وما نَالَنِي بِسَبَبِهَا من خَسَارةٍ وعَنَاءٍ .. فقد كانت كبيرةً ... وأحْسَنُ منهَا لم تَرَ قَطُّ عَيْنِي !!

صَنَعْتُ من الحَبَّاتِ سِتًّا ، أَرْبَعٌ منهَا لِلْقِلاَدَةِ . واثْنَتَانِ جعلتُهُمَا وَاسِطَةَ عِقْدَيْنِ آخَرَيْنِ ، احْتَفَظْتُ بِهِمَا . أمَّا فُرُوعُهَا الصُّغْرَى، فقدْ جَعَلْتُ منهَا سُبْحَةً لِوَالِدَتِي .

ليلَةَ أنْ نَظَمْتُ الحَبَّتَيْنِ ، في القلاَدَةِ ، رأيتُ العمَّ بُوجمعة في المَنَامِ وَهو يضْحَكُ سُرُورًا وابْتِهَاجًا .

المَرْجَانُ الأسْوَدُ

كانَ عليَّ أنْ أَتَحصَّلَ على المرجانِ الأسْوَدِ ، لِتَكْمُلَ القِلاَدَةُ . فسألتُ عنهُ . فَقِيلَ

لِي : إنَّه يُوجَدُ في البحرِ الأحْمَرِ . وَفِي بُحُورِ الشَّرْقِ الأقْصَى . فَقَرَّرْتُ أنْ أرْتَحِلَ إلَى مِصْرَ ، بِعْتُ ما لَدَيَّ ، من مرجانٍ ، زَائِدٍ عنْ حاجَتِي ، وجَمَعْتُ أمْوالِي وقصدتُ بلدَتي ، حيثُ قَضَّيْتُ بجانِبِ والدَتي فَصْلَ الشِّتَاءِ ، وبَعْضًا من الرَّبيعِ .

حدَّثتُ والدتي عن سَفَرِي ، فرَفَضَتْ أن تَسْمَحَ لِي . وحاولتُ ـــ كَثِيرًا ـــ إقْنَاعَهَا ولكنَّهَا لم تَتَرَاجَعْ في موْقِفِهَا ، ولم يكن بوُسْعِي أنْ أعْصِيَهَا أبَدًا ... فاحْتَرْتُ فِي أمْرِي ، وقضيتُ أيَّامًا ، شارِدَ اللبِّ ، أفكِّرُ في حلٍّ ، ولا أجِدُ .

كَثُرَ حدِيثُ النَّاسِ عن الحَجِّ ، الَّذِي اقْتَرَبَ مَوْسِمُهُ ... فوجدتُ الحلَّ الَّذِي أنْشُدُهُ .

اِقْتَرَحْتُ على والِدَتي ، أنْ نَحُجَّ معًا ... فطَارَتْ فَرَحًا وَوَافَقتْ مُسْرِعَةً فأعْدَدْنَا عُدَّتَنَا ثمَّ سافَرْنَا فقَضَيْنَا فَرْضَنَا وأدَّيْنَا مَنَاسِكَنَا ولمَّا قَضَيْنَا من البِقَاعِ المُقَدَّسَةِ كلَّ مآرِبنا أخَذْنَا طريقَ العودَةِ . وأثناءَ طرِيقِنا ، عرَضْتُ عليها ، أن نزورَ مِصْرَ . فأجابتني لذلك مُنْشَرِحَةً وفي القاهِرَة متَّعْتُهَا بكلِّ ما لذَّ وطابَ ، فراقَ لها العَيْشُ فيهاوطَاب المُقَامُ . وذلك ما كُنْتُ أبْغِي .

ادَّعَيْتُ لوالدتي أنَّ نُقُودِي كُلُّها قد سُرِقَتْ منِّي . فحزِنَتْ حُزْنًا بالِغًا وانْتابَهَا همٌّ شدِيدٌ . فأسِفْتُ لمَا سَبَّبْتُهُ لهَا من ألَمٍ وحُزْنٍ . ونَدِمْتُ علَى كَذِبِي . ولكنِّي كُنْتُ مُضْطَرًّا . وعسَى الله أنْ يَغْفِرَ لِي .

قالت والدتي : كَيْفَ نَرْجِعُ إلَى بَلَدِنَا ، ولا مالَ لَدَيْنَا ؟

قلتُ لها : نَحْنُ غَرِيبَانِ هُنَا . ولا وَسِيلَةَ لِلْمَالِ ، إلاَّ بِالعَمَلِ .

قالت : وَهَل تَجِدُ شُغْلاً ، يُوَفِّرُ لنَا مالاً ، يَكْفِينَا لِلْعَودَةِ ؟

قلتُ : أنَسِيتِ أنِّي غَوَّاصٌ ... وأنَّ حِرْفَتِي سَتَأْتِينَا بمَا يَكْفِينَا ، وزيادةً .

قالت : لَيْسَ لِي أنْ أمْنَعَكَ عن العملِ ، ولكِنْ ... لا تَغِبْ عنِّي طَوِيلاً . فَوَعَدْتُهَا بذلكَ . واتَّفَقْتُ معَ صاحِبَ سَفِينَةٍ ، يَصِيدُ المَرْجَانَ من البحرِ الأحْمَرِ . وقبْلَ سَفَرِي ، وَفَّرْتُ لِوَالِدَتِي ، كلَّ مَا تَحْتَاجُه وأوْصَيْتُ بها رَبَّ الأسْرَةِ ، الَّتي كنَّا نَسْكُنُ عِنْدَهَا ثمَّ اتَّجَهْتُ نحوَ البحرِ الأحْمرِ .

كانَ صاحِبُ السَّفِينَةِ ، ذَا خِبْرَةٍ عَظِيمَةٍ . ومن أمْهَرِ صيَّادِي المَرْجَانِ ، فِي بَلَدِهِ . وقدْ أمَدَّنِي بِنصائِحَ ، قَيِّمَةٍ . ونَبَّهَنِي إلَى الأخْطَارِ ، الَّتِي سَتَعْتَرِضُنِي . فقلتُ له :

ــ أنَا غوَّاصٌ مُحْتَرِفٌ . ولَدَيَّ من الخِبْرَةِ والتَّجرِبَةِ ، ما يَجْعلُنِي أتَّقِي كُلَّ خطَرٍ !

قال بِجِدٍّ : أخْطَارُ بَحْرِنَا ، أكْثَرُ مما تَظُنُّ !! فَعِنْدَنَا أسْمَاكٌ سَامَّةٌ ... شَدِيدَةُ الخُطُورَةِ ومَا أظُنُّهَا تُوجَدُ في بَحْرِكُمْ .

قلتُ له : لَدَيَّ خِنْجَرِي ، وهَو كَفِيلٌ بِالْفَتْكِ بِهَا .

قال : ولَكِنْ خِنْجَرَكَ لنْ يَنْفَعَكَ أمَامَ خَطَرِ المَرْجَانِ نَفْسِهِ .

قلت مُسْتَغْرِبًا : ما عَهِدْتُ المرجانَ خَطِرًا ... فمَا هوَ نَوْعُ خُطُورَتِهِ ؟

قالَ : أَظُنُّكَ تعرِفُ أنَّ هناكَ أنواعًا من النَّبَاتِ تَأكُلُ الحَشَرَاتِ .

قلتُ : أعرِفُ ذلكَ .

قالَ : فالمرجانُ الأسْوَدُ مِثْلُهَا !! فإنَّ الشَّجَرَةَ مِنْهُ ، إذَا أَحَسَّتْ باقْتِرَابِ جِسْمٍ حَيٍّ مِنْهَا مالَتْ عليهِ ، وٱلْتَصَقَتْ بهِ ، ثمَّ لا تَتْرُكُهُ إلاَّ بعدَ أنْ تَقْضِيَ عليهِ .

قلتُ : وهل تفعلُ بالانسانِ مثلمَا تَفْعَلُ بالحيوانِ ؟

قالَ : ولماذَا أُحَذِّرُكَ إذَنْ !

قلتُ : وكيفَ تَتَّقُونَ شَرَّ هذِهِ الأشجارِ المُفْتَرِسَةِ ؟

قالَ : نَغُوصُ تَحْتَهَا ، ونُسْرِعُ بِقَلْعِهَا ... احْذَرْ يَا بُنَيَّ أنْ تكونَ طعامًا للمرجانِ الأسودِ !!

وبَدَأْتُ العملَ ...

لَمْ أغْتَرَّ بجمالِ أشْجَارِ المرجانِ ، رَغْمَ سَوَادِهَا الحَالِكِ وبياضِ حَيَوَانِهَا النَّاصِعِ ،

الَّذي يَنْتَشِرُ فوقَ أغْصَانِهَا ، واسْتَطَعْتُ أنْ أتَجَنَّبَ كلَّ أخْطَارِهَا . وأخْطَارِ الأسماكِ السَّامَةِ .

بَهَرَنِي جمالُ الشُّعَبِ المَرْجَانِيَةِ الكثِيرَةِ وما فيهَا من مَرْجَانٍ مُخْتَلِفِ ألوَانُه . ومَا يَجُوبُ خِلاَل الصُّخورِ المَرْجَانِيَّةِ من أسماكٍ ، لم أُشاهِدْ مِثلَها في بِحارِنا ولعلَّ أغْرَبَ ما رَأيْتُه هوَ (السَّمكَةُ الطَّبِيبَةُ) وهيَ أسْمَاكٌ صغِيرَةٌ تَعِيشُ بَيْنَ الصُّخُورِ فتَأْتِيهَا الأسْمَاكُ الجَرِيحَةُ ، وتَقِفُ سَاكِنَةً وسَطَ المَاءِ ، ورَأْسُهَا إلى أسْفَل ، فتَأْتِي (الأسْمَاكُ الطَّبِيبَةُ) وتأخذُ في لَعْقِ جِرَاحِهَا ولاَ تَتْرُكُهَا إلاَّ وقدْ أكَلَتْ ما فِيهَا من جَرَاثِيمٍ والْتِهَابَاتٍ ، وقد يَسْتَلْزِمُ الأمْرُ أنْ تَدْخُلَ هذهِ الأسْمَاكُ أفْوَاهَ الأسْمَاكِ الجَرِيحة بدُونِ خَوْفٍ أوْ وَجَلٍ وهْيَ آمِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ . وهكذَا تَنْتَفِعُ الأسْمَاكُ الكَبِيرَةُ بتنظِيفِ جِرَاحِها وتُوَفِّرُ الصَّغِيرَةُ لِنَفْسِهَا الغِذَاءَ الَّذي يَحْفَظُ عليهَا حَيَاتَهَا ...

لمْ أتَعَجَّلِ الاسْتِيلاَءَ على المَرْجَانِ الأسْوَدِ ، ذلِكَ أنَّهُ كثِيرٌ ، فَجَعَلْتُ أبْحَثُ عن شَجَرةٍ تكونُ أعْظَمَ من غَيْرِهَا . فلمَّا عثرْتُ على أطْوَلِ شَجَرَةٍ رَأيْتُهَا ، احْتَفَظْتُ بِهَا . وانْقَطَعْتُ عن العَمَلِ بَعْدَ أنْ رَضِيَ صاحِبُ السَّفِينَةِ بِتَرْكِي أعُودُ إلى القَاهِرَةِ .

رجَعْتُ إلى أُمِّي ، فَوَجَدْتُهَا مُنْشَغِلَةَ البَالِ عليَّ وحالَمَا رأتْنِي طَلَبَتْ مِنِّي أنْ أعُودَ بِهَا إِلَى مَسْقَطِ رَأسِهَا : فقلتُ لهَا :

سَنَرْجِعُ . ولكنْ ، بَعْدَ أنْ يَصْنَعَ لنَا أحَدُ نَحَّاتِي المَرْجانِ حُبُوبًا من هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، نَنْظِمُ منها سُبَحًا ، وقَلائِدَ ، تَهْدِينَهَا لِصَدِيقَاتِكِ . ألَيْسَتْ هذِهِ أحْسَنُ هَدِيَّةٍ ؟

قالَتْ : صَدَقْتَ . إنَّهَا فِعْلاً خَيْرُ مَا يُهْدَى . اِفْعَلْ ما بَدَا لكَ . أعْطَيْتُ حَبَّةً من حَبَّاتِ القِلادَةِ ، لأحَدِ المَهَرَةِ ، من الصُنَّاعِ ، فصَنَعَ لِي عِشْرِينَ حَبَّةً مِثْلهَا . وعِشْرِينَ أقَلَّ مِنْهَا . وجعَلَ بَقِيَّة الشَّجَرَةِ حُبُوبًا ، مُخْتَلِفَةَ الأحْجَامِ ، والأشْكَالِ . فَلمَّا دَفَعْتُهَا لِوالِدَتِي نَظَّمَتْ مِنْهَا الكَثِيرَ من العُقُودِ ، والسُّبَحِ .

الخاتمة

عُدْتُ إلى بَلْدَتِي ، صُحْبَة وَالدَتِي . فَأَمْضَيْتُ قُرْبَهَا مدَّةً طويلَةً . ثم آسْتَأْذَنْتُهَا في العَوْدَةِ ، إلى طَبَرْقَة ، فوافقَتْ وعَرَضْتُ عَلَيْهَا أن تُرَافِقَنِي ، فَأَبَتْ . لأنَّ الحَيَاةَ لا تَحْلُو لهَا في غَيْرِ بَلْدَتِهَا ، فَعُدْتُ بدُونِهَا .

إِسْتَأْنَفْتُ الغَوْصَ . وأَكْمَلْتُ حَبَّاتِ القِلاَدَةِ . منَ المرْجَانِ الأحمرِ . ثم نَظَّمْتُ الحُبُوبَ في خَيْطِهَا الأصلِيِّ . فَلَمَّا أتْمَمْتُهَا فَرَكْتُهَا بَيْنَ أصَابِعِي ، فَشَعَّ مِنْهَا بَرِيقٌ غَرِيبٌ . وَآلتَمعَتْ حَبَّاتُهَا لَحْظَةً ثمَّ انْطَفَأَتْ . وكان البَرِيقُ يَعُودُ لهَا كُلَّمَا فَرَكْتُهَا .. وَبِجَانِبِ ذلِك فَقَدْ كانَتْ رَائِعَة الجَمَالِ . فَحَافَظْتُ عليْها . ولم أَسْمَحْ لأَحَدٍ بِرُؤْيَتِهَا .

عُدْتُ إلى عملي ، بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ . وكانَ الطقسُ مُوَاتِيًا ، والبَحْرُ رَائِقًا ، في أغلبِ الأيّامِ ، فكنتُ أغوصُ مَرَّتيْنِ بِاستِمْرَارٍ .. وأَسْعَدَنِي الحَظُّ ، فَتَحَصَّلْتُ على مَرْجَانٍ كثيرٍ بِعْتُهُ بِمَبَالَغ [illegible]ـائِلَةٍ .

كَثُرَ المَالُ لَدَيَّ . فَآنْفَصَلْتُ عن شَرِيكِي .. عَلِيّ . واقْتَنَيْتُ سَفِينَةً لي ، وَحْدِي عَمِلْتُ عليها بَادِئَ الأَمْرِ بِمُفْرَدِي . ثم دَرَّبْتُ شُبَّانًا عَلَى الغَوْصِ . فَعَمِلُوا معِي .

اتَّسَعَتْ أَعْمَالِي . فاَشْتَرَيْتُ سُفُنًا أُخرَى . واَمْتَلَكْتُ دِيَارا ، ودَكَاكِينَ ، وَضِيَاعا .. وَصِرْتُ أَنْعَمُ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ .

كُنْتُ لا أَفْتأُ أَنْظُرُ لِقَلاَدَةِ المَرْجَانِ يَوْمِيًّا .. وَلَكِنِّي لم أُخبِرْ بِسرِّهَا أَحَدًا .. وإن كنتُ أَعْتَقِدُ أنّ ما أَتَمَتَّعُ به من مالٍ ، وخَيْرٍ ، يعودُ الفَضْلُ فيه إلى جِدِّي ، واجْتِهَادِي في عَمَلِي . وَإلى اسْتِقَامَتِي . وَمُعَامَلَتِي لِمَنْ يُحِيطُونَ بِي مُعَامَلَةً كَرِيمَةً .

سحب من هذا الكتاب 5150 نسخة في طبعته الثانية

طبع هذا الكتاب
بشركة أوربيس للطباعة ـ قصر السعيد ـ تونس
الهاتف : 501.700

محمّد الحبيب ابن سالم

ولد بالمطويّة في 13 / 9 / 1922

- تعلّم بالكتّاب ثمّ بالمدرسة الإبتدائية بالقرية.
- واصل تعليمه في جامع الزّيتونة بتونس.
- أحرز شهادة التّحصيل في العلوم سنة 1942، وشهادة العالميّة في الآداب سنة 1947.
- التحق بسلك المعلّمين سنة 1947. درّس في المدارس الإبتدائيّة حتّى سنة 1957.
- سمي مديرا لمدرسة بنفزة سنة 1958، ثم العاصمة تونس سنة 1966.
- واصل تعليمه العالي بكلّية الشّريعة وأصول الدّين، وأحرز منها سنة 1969 إجازة في الشّريعة.
- درّس بعد ذلك في المعاهد الثّانويّة في العاصمة إلى أن أحيل على المعاش سنة 1979.

❖ *الإنتاج الفكري*: صدر له من قصص الأطفال:

عن الدّار التّونسية للنشر

◆ *قلادة المرجان*، تونس 1986. ◆ *قطّة بين النّيران*، تونس 1975

◆ *انتخاب حاكم الطّيور*، تونس 1987. ◆ *حكاية محراث*، تونس 1978

عن الشّركة التّونسية للتّوزيع ◆ *بنت العم جابر*، تونس 1978

◆ *الحصان الوفيّ*، تونس 1968. ◆ *قنطرة الصّفصاف*، تونس 1978

◆ *صراع في الحقول*، تونس 1970. ◆ *الرّابحون*، تونس 1978

◆ *وناس* (رواية للشّباب)، تونس 1973. ◆ *الوسام*، تونس 1979

الثمن: 3.000 د. ت.

9973 - 12 - 200 - 3